شرح

الرسالة التبوكية

زاد المهاجر إلى ربه/ابن القيم

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

من الدرس (١) إلى (٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

٠٢/ ٠٤/ ١٤٤٠

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد.. فالرِّسالة التبوكيّة للإمام العلَّامة المربِّي الفهّامة ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، رسالة عظيمة، سيَّرها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من تبوك عام ٧٣٣هـ وعمره وقتئذ يزيد علىٰ الأربعين بقليل، كتبها في طريق عودته من الحج في شهر الله المحرم، وبعثها لبعض أصحابه ورفقائه في الشَّام يُناصحهم فيها علىٰ التَّعاون علىٰ الخير، والتآزُر في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُنطلقًا من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خاتمة الآية الثانية من سورة المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثم وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

حيث ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية نوعين من التَّعاون، نوعًا أمر به ونوعًا نهىٰ عنه، فوجب علىٰ أهل الخير، وأهل الصَّلاح، وأهل الفضل، أن يكونوا علىٰ دِراية بالتَّعاون الذي أمر به فيكونون متعاونين عليه كما أمرهم الله، وعلىٰ دِراية بالتَّعاون الذي نهىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه فلا يكونون متعاونين عليه؛ بل يكونوا متعاونين علىٰ البعد عنه والسلامة منه.

وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بنىٰ رسالته التبوكيّة، أو نصيحته الأخوية علىٰ هذه الآية الكريمة، فانطلق منها؛ لأنها ترسم لأهل الخير ولأهل الفضل المنهج الذي ينبغي أن يكونوا عليه، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في ثنايا هذه الرِّسالة مباحث نفيسَة جدًّا تتعلَّق بهذا الباب، وتتعلق **بزاد المُسافر إلىٰ الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لأنّ أهل الإيمان والطَّاعة في سفر إلىٰ الله، والمسافرون يحتاجون لتتحقق لهم الراحة والمقاصد في سفرهم إلىٰ تعاون؛ تعاونٌ علىٰ ما فيه خير هذا السَّفر وصلاحه، وتعاونٌ علىٰ البعد علىٰ ما فيه المضرَّة لهذا السَّفر، فالمسافر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ له زاد في هذا السَّفر، وبحاجة إلىٰ إخوانٍ يعينونه ويشدُّون من أزْره لكي تتحقَّق لهم جميعًا النجاة.

هذه الرِّسالة التي بين أيديكم، الرِّسالة التَّبوكيّة للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، رسالة عظيمة جدًّا نحتاج إليها في هذا الزمان حاجة ماسَّة، وبخاصة مع وجود هذه الأجهزة الحديثة التي يسَّرت التَّواصل، وهذا التَّواصل الذي تيسر من خلال هذه الأجهزة من الناس من استعمله في التَّعاون علىٰ الخير، ومنهم من استعمله في التَّعاون علىٰ الشَّر والعياذ بالله، ولهذا نحتاج فعلًا أن نقرأ هذه الرِّسالة وهذه الوصيّة المباركة وأن نفعّلها في حياتنا، وأن نفعّلها أيضا في استعمالاتنا لهذه الأجهزة، لنكون بإذن الله عَزَّوَجَلَّ من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ،

من السَّالمين من التَّعاون علىٰ الإثم والعدوان أعاذنا الله أجمعين من ذلك.

هذه الرِّسالة لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ يحتاجُ إليها طالب العلم وغيرُه؛ لأنَّها ترسِم للمسلم منهج حياة، وطريق أمان، وسبيل نجاة، ودرْب فوز وسعادة في الدُّنيا والآخرة، وتفتح له أبوابًا في الهداية وسلوك طريق النَّجاة، وتدبُّر القرآن الكريم والعناية بلزوم منهجه القويم، والاهتداء بهداياته المُباركة العظيمة.

نسألُ الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحُسنىٰ وصفاته العليا الذي يسَّر لنا هذا الاجتماع لقراءة هذه الرِّسالة لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، أن ييسِّر لنا الانتفاع بها، وأن يهدينا إليه أجمعين صراطًا مستقيمًا، وأن يجعلنا من المتعاونين علىٰ البرِّ والتقوىٰ، وأن يعيذنا من سبيل التَّعاون علىٰ الإثم والعدوان، بمنِّه وكرمه.

ونشرع مستعينين بالله تبارك وتعالىٰ، مستمنحين منه المعونة والتوفيق في قراءة هذه الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكَّل، قال الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيِّم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأرضاه في كتابه الذي سيّره من تبوك ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية، بعد إرسال المنظومة التي أوّلها:

إذا طلعــت شــمس النهــار فإنهــا ....

(إذا طلعــت شــمس النهــار فإنهــا أمــارة تســليمي علــيكم فســلموا)

هذه منظومة نفيسة جدًّا، نظمها الإمام ابن القيم معبرا فيها عن محبته العظيمة لإخوانه اللذين يجمعه وإياهم اتباع سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، ولزوم نهجه القويم، تشتمل علىٰ معانٍ عظيمة وحكم بليغة ووصايا نافعة، وإيقاظٍ لمعاني هذه المحبة والأخوة الدِّينية والرابطة الإيمانية، فبعد إرسال المنظومة تلك كتب هذه الوصية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الثامن من شهر الله المحرَّم، وكان وقتئذ في تبوك ولهذا سُمِّيت التبوكية، وكثير من كتب أهل العلم وبخاصة الشيخين ابن تيمية وابن القيم، كثير من كتبهم بأسماء بلدان، مثل: «الواسطية»، و«الصفدية»، و«الحموية»، و«الرسائل المصرية»... إلىٰ غير ذلك كثير جدا، وعُرفت بأسماء تلك البلدان في الغالب؛ لأنّ السؤال الذي ورد عليه فأجاب بتلك الرِّسالة مفصِّلا في ما سأل عنه السائل، فنُسبت إلىٰ البلد الذي جاء منه السؤال.

وهذه الرسالة كتبها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ابتداءً من تبوك، وسيَّرها إلىٰ بعض أصحابه فعرفت بالرِّسالة التبوكية لأنه كتبها في تبوك، وبعثها لبعض رُفقائه، بعثها في طريقه؛ في سيره، وابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ممَّا عُرف عنه استغلال السفر في التأليف، ولم يكن السَّفر بالوسائل المريحة التي نشهدها وننعم بها في هذا الزَّمان، وإنما كان السَّفر علىٰ الإبل، وفيه من المشقة ما لا يخفىٰ في الكتابة والتأليف؛ لكن عددا من مؤلفاته كان يكتبها في طريق السفر، ويعتذر أحيانا عن بعض التفاصيل بأنه في طريق سفر، فانظر هذه الهمَّة ما أعظمها، وهذه العناية بالوقت ما أجلها، حتىٰ السفر الذي هو عناء وجَهد ومشقة لم يغِب عنه فيه النُّصح لإخوانه وبذل الخير لهم.

و«زاد المعاد» كتابه الحافل المعروف ممَّا يذكر أنه كتبه في طريق السَّفر، وكُتب أخرىٰ له أيضًا، فهذا فيه الهمّة العالية من جهة، وفيه أيضا عظم النُّصح؛ لأنه عادة لما تكون في السفر يكون ذهنك متركز في ما ستلقاه في سفرك، وكيف تصل، ومن يستقبلك، وأين تسكن، وأين تذهب... مشغول بنفسك، لكن أن ترتقي الهمة هذا المرتقىٰ العظيم ويكتب هذه الرسالة الرصينة المتينة نصيحةً لبعض إخوانه بهذا الإتقان، فهذا شيءٌ من الفتوحات الربَّانية والهبات الإلهية ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الحديد].

فصل

وبعد حمد الله بمحامده التي هو لها أهل، والصلاة والسلام علىٰ خاتم أنبيائه ورسله، محمد ﷺ، فإنَّ الله سبحانه يقول في كتابه: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

وقد اشتملت هذه الآية علىٰ جميع مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربِّهم، فإن كل عبد لا ينفك عن هاتين الحالتين وهذين الواجبين: واجبٍ بينه وبين الله، وواجبٍ بينه وبين الخلق.

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه الرِّسالة أو هذه الوصية بحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بمحامده التي هو لها أهل، وهذا يتناول جميع ما يُحمد الله تبارك وتعالىٰ به، وهو جلَّ وعلا يُحمد علىٰ أسمائه الحسنىٰ العظيمة وصفاته العليا الجليلة وعلىٰ نِعمه التي لا تعدُّ ولا تحصىٰ، فبدأ بحمد الله جل وعلا بمحامده التي هو لها أهل، وهو أهل الثَّناء وأهل الحمد وأهل المجد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وبالصَّلاة والسلام علىٰ رسوله ومُصطفاه ونبيه ومجتباه محمَّد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ثم ذكر هذه الآية التي بدأ بها هذه الوصية وبنىٰ عليها هذه الرِّسالة، وهي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة]، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ هذه الآية اشتملت علىٰ جميع مصالح العباد، فهي آية فاذَّة جامعة، وهي بتعبيرٍ أدق: جزء من خاتمة الآية الثانية من سورة المائدة، فهذا الجزء من الآية وهو قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ آية فاذّة جامعة جمعت جميع مصالح العباد في المعاش والمعاد، فيما يتعلَّق في معاملتهم مع الله، وفيما يتعلَّق بمعاملة بعضهم بعضًا، جمعت ذلك بأوجز عبارة وأبينها وأوفاها.

وكما أشرتُ فإنّ هذه الآية فيها ذِكرٌ لنوعين من التَّعاون: نوع أمر الله به، ونوع نهىٰ الله عنه، وكلُّ ذلك سيفصله ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، ذكر أنَّ كلَّ عبدٍ لا ينفك من هاتين الحالتين وهاذين الواجبين، ما يتعلق في التعامل بين العباد، وما يتعلّق في التعامل مع الله، أما التعامل مع العباد فيقوم علىٰ ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾، وأما التعامل مع الله فيقوم علىٰ قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾ كلُّ ذلك سيأتي تفصيله عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

بدأ فيما بين العبد وبين الخلق لأنه بُدئ به بالآية، فبدأ بما بُدئ به في الآية.

فأما ما بينه وبين الخلق من المعاشرة والمعاونة والصحبة، فالواجب عليه فيها أن يكون اجتماعه بهم وصحبته لهم تعاونا علىٰ مرضاة الله وطاعته، التي هي غاية سعادة العبد وفلاحه، ولا سعادة له إلا بها، وهي البر والتقوىٰ اللذان هما جماع الدِّين كله، وإذا أُفرد كلُّ واحد من الاسمين دخل فيه المسمَّىٰ الآخر، إما تضمنا وإما لزوما، ودخوله فيه تضمنًا أظهر، لأن البر جزء مسمَّىٰ التقوىٰ، وكذلك التقوىٰ فإنه جزء مسمَّىٰ البر، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل علىٰ أنه لا يدخل فيه عند الانفراد. ونظير هذا لفظ الإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصَّالح، والفقير والمسكين، والفسوق والعصيان، والمنكر والفاحشة... ونظائره كثيرة.

فيما يتعلق بتعامل العباد ومعاشرتهم وتناصحهم وصحبتهم، الواجب كما ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أن يكون تعاونًا علىٰ مرضاة الله وعلىٰ طاعة الله وعلىٰ ما تكون به السعادة عند لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويحدِّد معالم ذلك قول الله في هذه الآية ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ يبيِّن المراد بهذا الذي أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتعاون عليه، قال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ بهذا أمرنا جل وعلا، إذن لابد؛ بل يتأكد علينا ويتحتَّم علينا أن نعرف البر ما هو، وأن نعرف التقوىٰ ما هي، من أجل أن نتعاون. ولهذا شرع رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان حقيقة البر وحقيقة التَّقوىٰ؛ لأن التعاون عليهما فرعٌ عن المعرفة بهما والدِّراية بهما، فما هو البر؟ وما هي التقوىٰ؟ الذي أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتَّعاون عليهما.

وهاتان الكلمتان (البر والتقوىٰ) هما جِماع الدِّين كلِّه، أي: الدين كله يرجع إلىٰ هاتين الكلمتين (البر والتقوىٰ)، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ قاعدة نفسية جدًّا لابدَّ أن يفقهها طالب العلم، وهي أنَّ من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّيات متعدِّدة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها، ويلخِّصها بعض أهل العلم بقولهم: **إذا اجتمعت افترقت وإذا افترقت اجتمعت**، وهذا في أسماء كثيرة، مثل: البر والتقوىٰ، (والإيمان والإسلام، والإيمان والعمل الصالح، والفقير والمسكين)، وعبارات كثيرة جدًّا إذا اجتمعت افترقت (أي في المعنىٰ)، وإذا افترقت في الذِّكر، ذكر كل واحد منهما مفردا عن الآخر جمعت المعنىٰ كلَّه، وهنا في هذه الآية جمع بين البر والتقوىٰ في نصٍّ واحد، وعليه فيكون البر له معنىٰ والتَّقوىٰ لها معنىٰ، ولكن لو ذُكر البر وحده شمل معنىٰ التَّقوىٰ، وإذا جاء الأمر أيضا بالتقوىٰ شملت معنىٰ البر، وإذا ذُكرا معا كما في هذه الآية الكريمة فالبر له معنىٰ والتقوىٰ لها معنىٰ، فاحتاج المقام إلىٰ أن نعرف ما البر هنا حال اقترانه بالتقوىٰ؟ وما التقوىٰ هنا حال اقترانها بالبر؟

يقول: (إذا أُفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمَّىٰ الآخر)، يعني إذا ذكر التَّقوىٰ وحده دخل فيه البر،

وإذا ذكر البر وحده دخلت فيه معاني التقوىٰ، (إمَّا تضمُّنا وإما لزومًا، ودخوله فيه تضمُّنًا أظهر، لأن البر جزء مسمىٰ التقوىٰ، وكذلك التقوىٰ فإنها جزء مسمَّىٰ البر)، ولهذا عند إطلاق أيٍّ منهما فإنه يتناول معنىٰ الآخر، قال: (وكون أحدِهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدلُّ علىٰ أنه لا يدخل فيه عند الانفراد)؛ أنّ هذا باب وهذا باب.

❊❊❊

وهذه قاعدة جليلة، من أحاط بها زال عنه إشكالات كثيرة أشكلت علىٰ طوائف كثيرة من الناس، ولنذكر من هذا مثالا واحدا يُستدل به علىٰ غيره، وهو البر والتقوىٰ.

نعم، يعني اقتصاره علىٰ البر والتقوىٰ: أولا لأنه هو مقصود الرسالة، لأن الرسالة بناها علىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، ومن جهة أخرىٰ فيه توضيح لهذه القاعدة العظيمة، التي ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها تزيل إشكالات كثيرة.

❊❊❊

فإنّ حقيقة (البر) هو الكمال المطلوب من الشيء، والمنافع التي فيه والخير، كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة وتصاريفها في الكلام، ومنه البُرُّ بالضَّم، لكثرة منافعه وخيره بالإضافة إلىٰ سائر الحبوب، ومنه رجل بارّ، وبَرٌّ، وكِرام بَرَرة، والأبرار، فالبِرُّ كلمة لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلته (الإثم) وفي حديث النّواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» فالإثم كلمة جامعة للشر والعيوب التي يُذم العبد عليها.

فيدخل في مسمىٰ (البرّ): الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريب أن التقوىٰ جزء هذا المعنىٰ، وأكثر ما يعبر بالبر عن برّ القلب، وهو وجود طعم الإيمان فيه وحلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامته وانشراحه وقوته وفرحه بالإيمان، **فإنّ للإيمان فرحة وحلاوة ولذاذة في القلب، فمن لم يجدها فهو فاقد للإيمان أو ناقصه**، وهو من القسم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات:١٤] فهؤلاء علىٰ أصح القولين مسلمون غيرُ منافقين، وليسوا بمؤمنين إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم فيباشرها حقيقتُه.

هنا يبيِّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ معنىٰ البر، وأنّ (البر) هذه كلمة جامعة للخير كله، لأنّ مدلول هذه اللفظة (البر) فيه شمولية، وفيه جمع لمعاني الخير واكتمالها واجتماعها، ولهذا لما يقال البَر، أو البار، أو الأبرار، تعني هذه الكلمة اجتماع معاني الخير والفضيلة، ولهذا يقول: (فالبر كلمةٌ لجميع أنواع الخير والكمال المطلوب من العبد)، إذا عُرف أن البر بهذا الشمول وهذه الجمعية للمعاني فالتقوىٰ داخلة في معناها، وداخلة فيما يشمله لفظها، (فيدخل في مسمَّىٰ البر الإيمان وأجزاؤه)، يدخل في مسمَّىٰ البر الدِّين كله، الدِّين كله داخلٌ في معنىٰ

هذه اللَّفظة، (وفي مقابلتها) كما جاء في الآية الكريمة جاء النَّهي عن (الإثم)، التَّعاون علىٰ البر والنهي عن التعاون علىٰ الإثم، وسيأتي أنَّ هذه الكلمة (الإثم) كلمة تجمع المعاصي كلَّها، والذُّنوب بأنواعها تجمعُها هذه الكلمة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي حديث النّواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال له: «جئت تسأل عن البر والإثم؟») هذا اللفظ جاء عن النبي ﷺ في حديث وابصة بن معبد، وقد جاء إلىٰ النبي ﷺ وحوله أناس من أصحابه، وتقدم يدخل إلىٰ النبي ﷺ، وفي نفسه أن يسأل النبيَّ ﷺ عن البر، فقبل أن يسأل قال له النبي ﷺ: «**جئت تسأل عن البر والإثم؟**» ثم بيَّن له صلوات الله وسلامه عليه البر ما المراد به، والإثم ما المراد به، شاهد ابن القيم من ذلك أنّ كلمة البر يقابلها ماذا؟ الإثم، كلمة البر في مقابلها الإثم، فالبر كلمة تجمع الخير بأنواعه، والإثم كلمة تجمع الشر بأنواعه.

وهذا الصحابي جاء ليسأل عن شيء جامع، يعرف به البر ويعرف به الإثم، جاء يسأل عن هذا، وهذا فيه همة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في طلب الخير وطلب النجاة والسعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة، وحديث وابصة في سنده مقال، لكن له شواهد قوَّاه أهل العلم بها، منها هذا الحديث، حديث النّواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطَّلع عليه الناس**».

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فيدخل في مسمَّىٰ البر الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة)، يعني ما يتعلَّق بالقلوب من عقيدة وأعمال متنوِّعة هي أعمال القلوب، وأيضا ما يتعلق بأعمال البدن الظاهرة، هذه كلها داخلة في البر، فالبر ليس فقط أعمالًا ظاهرة؛ بل البر يتناول أعمال القلوب الباطنة التي لا تظهر ولا يطَّلع عليها إلا الله، كما يتناول أيضا أعمال البدن، ولهذا سيأتي تقرير هذا المعنىٰ في آية البر الجامعة من سورة البقرة.

نبَّه هنا ابن القيم علىٰ أمر جليل القدر فيما يتعلَّق بالبر، وهو الأساس الذي يقوم عليه البر، وهو ما يتعلَّق بذوق القلب لحلاوة الإيمان وطعم الإيمان؛ لأنّ هذا هو الأساس الذي يقوم عليه البر، فإنّ أساس البر عقيدة صحيحة تقوم في قلب العبد، هذا هو أساس البر ومُرتكزه، ولا يمكن أن يكون برٌّ مرضيٌّ مقبولٌ من العبد إلَّا إذا قام علىٰ معتقدٍ صحيح، فإن لم تكن الأعمال – أعني أعمال البر – قائمة علىٰ معتقدٍ صحيح، فإنها تذهب سُدًىٰ وتضيع هباءً، كما في السورة نفسها قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ [المائدة]، أعمال البر لا تقوم إلا علىٰ ركيزة البر وأساسه الذي عليه قيامه، وهو صحة المعتقد، ولهذا أبرّ البر العقيدة الصحيحة؛ بل هي أساس البر الذي عليه قيامه، ولهذا سيأتي في آية البر ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ ؟ نعم ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ..﴾

[البقرة:١٧٧] هذا هو البر وهذا أساس البر والركيزة التي لا يقوم البر إلا عليها.

قال: (فمن لم يجد) هذا الذَّوق لحلاوة الإيمان في قلبه (فهو فاقد للإيمان أو ناقصه، وهو من القسم الذين قال الله فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾) لمَّا قال الله في حق هؤلاء ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ هل هم كفَّار!؟ الجواب: لا، علىٰ أصح قولي العلماء في معنىٰ الآية، وإنَّما هم مسلمون حدثاء عهد بإسلام لم يتمكَّن الإيمان في قلوبهم، دخلوا في الإسلام لكن لم يرتقوا إلىٰ درجة الإيمان، فادَّعوا لأنفسهم الإيمان (قالوا: آمنا) قال الله: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ ولو كانوا كفارًا غير مسلمين لم يصح أن يُقال: ﴿قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فالصحيح في ما قيل في معنىٰ الآية والصحيح من القولين في معنىٰ الآية أنهم ليسوا كفارًا، لكنهم ضعفاء إسلام حدثاء عهد بإسلام ادّعوا لأنفسهم هذه المرتبة (قالوا آمنا) فقال الله: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾.

يقول ابن القيم: (من لم يجد) حلاوة الإيمان وطعمه في قلبه (فهو فاقد للإيمان أو ناقص) الإيمان، من القسم الثاني، أو (من القسم الذين قال الله فيهم: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾) لم تؤمنوا؛ أي: لم تصلوا إلىٰ درجة الإيمان، لأنّ من لم يذق هذه الحلاوة هذا الطعم لم يصل إلىٰ هذه المرتبة العلية من مراتب الدِّين، لأنّ الدِّين مراتب، إسلام ثم إيمان ثم إحسان وهو أعلىٰ الرُّتب.

وقد جمع الله تعالىٰ خصال البر في قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة].

فأخبر سبحانه أنّ البر هو الإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها، وأنَّه الشرائع الظاهرة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة، وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه، من الصبر والوفاء بالعهد، فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدِّين، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح وبالقلب وأصول الإيمان الخمس، ثم أخبر سبحانه أن هذه خصال التقوىٰ بعينها فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾.

ذكر هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هذه الآية العظيمة من سورة البقرة، وهي تُعرف عند بعض أهل العلم بآية البر؛ لأنها جمعت خصال البر، وبيّنت أنّ البر يشمل كما تقدم عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أجزاء الإيمان الظاهرة والباطنة، البر يشمل أجزاء الإيمان الظاهرة والباطنة، وجملةً في معنىٰ الآية جاء أنّ خصال البر علىٰ قسمين، عقيدة وشريعة، هذه خصال البر، عقيدة في صدر الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قال:

(وهذه أصول الإيمان الخمسة)، ولا إشكال في عدِّها ستة في حديث جبريل؛ لأنّ الإيمان بالقدر هو من الإيمان بالله، فالقدر قدرة الله ﷻ، فأصول الإيمان هي هذه الخمسة والقدَر داخل في الإيمان بالله ﷻ، لأنه من الإيمان بربوبية الله وتدبيره، وأنّ الأمر أمره ﷻ وطوع تصريفه وبإذنه ومشيئته، وأنه أحاط بكل شيء علما، فهو من الإيمان بالله ﷻ، ولهذا قال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. فهذه أصول الإيمان الخمسة، ذُكرت في مقدمة خصال البر، وهذا يستفاد منه أنّ البر يقوم علىٰ هذه الركيزة التي هي العقيدة الصحيحة، القائمة علىٰ هذه الأصول، فيستفاد من ذلك أنّ أعمال البر كلها إن قام بها العبد لا تنفعه عند الله إن لم تكن قائمة علىٰ هذه الأصول التي بُدِئ بها وصُدّر بها في هذه الآية؛ لأنها أصول تقوم عليها أعمال البر وتتأسس، فأعمال البر أصول وفروع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم].

فالعقيدة هي الأصل والأساس الذي يقوم عليه البر، ثم من بعد ذلك تأتي الشريعة التي هي الأعمال في قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

في ضوء ما سبق نذكر خلاصة نافعة بإذن الله، الله ﷻ أمر بالتعاون علىٰ البر، وذكر ابن القيم رحمه الله هذه الآية آية البر، واستنبط منها أن البر يجمع خصال الخير كلِّها.

ففي ضوء ما تقدَّم فإنّ التعاون علىٰ البر يبدأ أوَّلا بالتعاون علىٰ تصحيح المعتقد، وإقامة الدين علىٰ أصله الصحيح الذي هو الإخلاص للمعبود، والإيمان بما أمر الله ﷻ عباده بالإيمان به من أصول الدِّين وقواعد الإيمان العظيمة التي لا يقوم الإيمان إلَّا عليها.

ثم من بعد ذلك التَّعاون علىٰ فرائض الإسلام العظيمة، والواجبات المتحتِّمة.

ثم من بعد ذلك التَّعاون علىٰ البُعد عن الحرام واجتناب الآثام.

ثم من بعد ذلك التعاون علىٰ الرغائب والمستحبات.

فهذه معاني البر التي أُمرنا بالتعاون عليها، يدخل في ذلك ما يتعلَّق بالباطن، وأساس ذلك العقيدة الصحيحة، ثم أعمال القلوب المتنوعة (الصدق والوفاء والتوكل والرجاء والخوف إلىٰ غير ذلك) هذه كلها ممَّا يُتعاون علىٰ تحقِيقها والعمل علىٰ تمكينها في القلوب، والتَّعاون علىٰ فرائض الإسلام وواجبات الدِّين العظيمة، والتعاون علىٰ البعد عن الآثام والمحرمات خاصة كبائر الإثم، ثم التعاون علىٰ الرغائب

والمستحبَّات، فهذا كله يتناوله قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

وأما التقوىٰ فحقيقتها: العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابا، أمرا ونهيا، فيفعل ما أمر الله به إيمانا بالأمر وتصديقا بوعده وتصديقا بموعده، ويترك ما نهىٰ الله عنه إيمانا بالنهي وخوفا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتقوىٰ. قالوا وما التقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله تخاف عقاب الله.

وهذه من أحسن ما قيل في حد التقوىٰ.

فإنّ كل عمل لابد له من مبدأ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض لا العادة ولا الهوىٰ ولا طلب المحمدة والجاه وغير ذلك؛ بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته وهو الاحتساب، ولهذا كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبيِّ ﷺ: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**» و«**من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا**» ونظائره.

هنا ذكر الجانب الثاني مما أمر الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتعاون عليه وهو التقوىٰ، فذكر حقيقة التقوىٰ وأنها هي العمل بالطاعة، طاعة الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إيمانًا واحتسابًا، إيمانا: أي بالله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واحتسابا للأجر والثواب الذي أعده الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمطيعين، وتشمل التَّقوىٰ عند الإطلاق فعل الأوامر وترك النواهي.

ثم ذكر هذه الكلمة العظيمة الجامعة في تعريف التقوىٰ لطلق بن حبيب، وهو من علماء التابعين، ذكرها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عندما سئل عن كيف تُتَّقىٰ الفتنة؟ ما الذي تتقىٰ به الفتن؟ فقال: اتقوها بالتقوىٰ. أو ادفعوها بالتقوىٰ، فسألوه حينئذ: ما التقوىٰ؟ فذكر هذا التعريف الجامع الذي هو كما ذكر ابن القيم من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ، وأخذ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ يوضِّح المعنىٰ من خلال هذا الأثر، وأيضا شرحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ شرحا نفيسا نافعًا مفيدا، فيؤجَّل ما يتعلق بموضوع التَّقوىٰ إلىٰ لقاء الغد بإذن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأيضا ما يتعلق بهذا الأثر العظيم في حدِّ التقوىٰ وهو من أحسن ما قيل في حدها، يؤجل إلىٰ لقاء الغد بإذن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا علما، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تعالىٰ سميعُ الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

٣ / ٤ / ١٤٤٠

وأمَّا التقوىٰ: فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بموعده، ويترُك ما نهىٰ الله عنه إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتَّقوىٰ. قالوا: وما التقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نورٍ من الله تخاف عقاب الله. وهذه من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ.

فإنّ كل عملٍ لابد له من مبدإٍ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة، ولا الهوىٰ، ولا طلب المحمدة والجاه... وغير ذلك؛ بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد.. فكلامُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كما عرَفنا في بيان قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة] ومن تمام التَّعاون علىٰ البر والتَّقوىٰ أن يكون المتعاوِنُون عليه علىٰ درايةٍ بالبر ودرايةٍ بالتَّقوىٰ، ولهذا أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان ذلك، فبيَّن ما يتعلق بمعنىٰ البر ومدلوله، وشرع هنا في بيان معنىٰ التَّقوىٰ ومدلولها.

والتقوىٰ أصلها: أن يجعل المرء بينه وبين ما يخشاه وقاية تقِيه، فمن خاف حرَّ الشمس استخدم شمسية تقيه من حرها، ومن خاف شدّة البرد استخدم واستعمل ملابس تقيه من البرد... وهكذا، ومن خاف عِقاب الله والوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخاف النار وسخط الجبار، عليه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضب الله وعقابه وقايةً تقيه، هذا الذي يُجعل هو التَّقوىٰ، هذا الذي يُجعل وقاية بين العبد وبين غضب الرب وسخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التَّقوىٰ، وذلك بفعل ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتركِ ما نهىٰ عنه وزجر.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان حقيقةِ التَّقوىٰ: (العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا) هذه حقيقة التقوىٰ، حقيقة التقوىٰ أن يعمل المرء بطاعة الله أمرًا ونهيا، إيمانًا واحتسابًا، أمرًا: أي فعلًا للأوامر، ونهيًا: أي تركًا للنواهي، فحقيقة التقوىٰ أن يكون العبد مطيعًا لله، ممتثلًا أوامر الله، منتهيًا عما نهاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، ويفعل ذلك إيمانًا واحتسابًا، إيمانًا بالله وصدق موعوده جل في علاه، واحتسابًا؛ أي: لثوابه وطلبًا لما أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده

المطيعين المحسنين الممتثلين أمر الله ﷻ.

ثم نقل رَحِمَهُ اللهُ هذا التعريف الجامع لطلق بن حبيب، وهو من علماء التابعين، سُئِلَ لمّا وقعت الفتنة، سُئِلَ كيف نتّقيها؟ ما الأمر الذي نتّقي به الفتنة؟ فقال رَحِمَهُ اللهُ: (ادفعوها بالتقوىٰ). وهذا كلامٌ عظيم جدًّا مليء بالفقه، قال: اتّقوها: أي الفتنة، بالتقوىٰ، (ادفعوها بالتقوىٰ)، وهذا هو أعظم ما تُتّقىٰ به الفتن، وتكون به النجاة منها بإذن الله ﷻ، أن يتّقيها بتقوىٰ الله وأن يدفعها بتقوىٰ الله ﷻ، فقالوا له: وما التّقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعةِ الله علىٰ نورٍ من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله خيفة عذاب الله، وهذا كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ: من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ.

ونقل هذا التعريف الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في «سير أعلام النبلاء» ثم قال مثنيًا عليه قال: أبدَعَ وأوجز، فلا تقوىٰ إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والاتّباع، تروٍّ؛ أي: أخذ العلم والاتباع برويّة وأناة، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليُقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقِر اجتنابها إلىٰ معرفتها، ويكون التَّرك خوفًا من الله، لا ليُحمد بتركها، فمن داوم علىٰ هذه الوصية فقد فاز، فهذه الوصية وأيضا هذا البيان لمعنىٰ التقوىٰ من قول طلق رَحِمَهُ اللهُ كلامٌ موجز وبليغ ووافي في بيانِ حقيقة التقوىٰ، وأنَّ التقوىٰ تحتاج إلىٰ روِيّة بالعلم والاتباع، وتحتاج إلىٰ احتساب في طلب الأجر والثواب من الله ﷻ والخوف من عقابه جل وعلا، ولهذا قال: أن تعمَل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله.

وفي معنىٰ ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢] (علىٰ نور من الله): علىٰ بصيرة وبيِّنة في المأمور وفي المنهي عنه، ومن لم يكن علىٰ بصيرة بالمنهي كيف يتّقيه؟ مثل ما قيل قديمًا: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!؟ الذي لا يدري ما هي الذنوب وليس عنده معرفة بها كيف يتقيها!؟ ولهذا الأوامر وكذلك النواهي تحتاج إلىٰ العلم وتفتقر إليه، لابد فيها من العلم، ولابد أن يكون أيضًا ما يقع من العبد من أعمال خالصةً لله يبتغي بها ثوابه وأجره وعظيم موعُوده ﷻ.

ولهذا كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبيِّ ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا» و«من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا» ونظائره..

نعم، كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين الإيمان والاحتساب، الإيمان بالله وبموعوده وثوابه وما أعدّه للمطيعين من جميل الثواب وعظيم المآب، وأن يحتسب، يحتسب الأجر والثواب عند الله ﷻ، يرجو علىٰ عمله هذا عظيم الثواب عند الله ﷻ.

فقوله: (علىٰ نورٍ من الله) إشارة إلىٰ الأصل الأول، وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

(الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه)، والإيمان لا يكون له قيام إلا علىٰ العلم، ففيه العلم، ولهذا النُّور يُراد به نور الإيمان القائم علىٰ العلم الصَّحيح، المستمد من كتاب الله ﷻ، ولهذا تقدَّم معنا في الآية التي من أواخر سورة الشورىٰ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢] فقول طلق: (علىٰ نورٍ من الله)، أي: علىٰ إيمان صحيح قائم علىٰ علمٍ مستمَدٍّ من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وقوله: (ترجو ثواب الله) إشارةٌ إلىٰ الأصل الثاني وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يوقَع العمل، ولها يُقصَد به.

(ترجو ثواب الله) هذا إشارة إلىٰ الأمر الثاني وهو الاحتساب، (إيمانًا واحتسابًا)، احتساب الثواب ورجاء الموعود، موعود الله ﷻ، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ولها يقصد به، مثل ما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء] أي: مرضيا مقبولًا عند الله ﷻ.

ولا ريب أنّ هذا جامعٌ لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمىٰ.

البر داخلٌ بهذا المسمىٰ للتقوىٰ، وعرفنا أيضًا فيما سبق مسمَّىٰ البر الذي يجمع الخير كلّه أن التقوىٰ داخلة في ذلك المسمَّىٰ.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

هنا ننتبه إلىٰ أنّ التعريف السابق للبر والسابق أيضًا للتقوىٰ تعريفٌ له بالإطلاق، لأنَّه يشمل الخير كله والدين أجمَعه، لكن عند الاقتران، عند اقتران أحدهما بالآخر كما في الآية المعني شرحُها هنا، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فإنّ المعنىٰ يفترق، يأخذ البر جزءًا من المعنىٰ العام، والتَّقوىٰ يأخذ الجزء الباقي، يقتسمان المعنىٰ العام، يأخذ البر جزءٌ من المعنىٰ والتقوىٰ تأخذ الجزء الباقي علىٰ القاعدة التي أشرت وذكرها الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»، قال: إنّ من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّياتٍ متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فالفرق بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره، والغاية المقصودة لنفسها، فإن البرّ مطلوبٌ لذاته إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدَّم، وأمّا التقوىٰ فهي الطريق الموصلة إلىٰ البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل علىٰ هذا، فإنها فعلىٰ من وقىٰ يقي، وكان أصلها وقوىٰ، فقلبوا الواو تاء، كما قالوا: تُرَاث من الوراثة، وتُجَاه من الوجه، وتُخمَة من الوخَم... ونظائره، فلفظها دالٌّ علىٰ أنها من الوقاية، فإنَّ المُتَّقِيَ قد جعل بينه وبين النار وِقاية، فالوقايةُ من باب دفع الضرر، والبرُّ من باب تحصيل النفع، فالتقوىٰ كالحِمية، والبر كالعافية والصحة.

هذا بيان من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ للبر والتقوىٰ إذا اجتمعا في الذِّكر، وعرفنا القاعدة أنّ هذه الألفاظ وهذه الأسماء إذا اجتمعت في الذِّكر افترقت في المعنىٰ، أصبح لكل لفظٍ معنًىٰ خاص، أصبح لكل معنًىٰ لفظٌ خاص، والذي حرَّره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في الفرق بينهما، أن البرّ مطلوب لذاته، والتقوىٰ طريقة موصلة إليه، لأن التقوىٰ وقاية، كأنك بالبر تفعل الخيرات الموصلة إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وبالتقوىٰ تتَّقي ما يعثّرك عن الوصول إلىٰ هذه الخيرات، ويثنيك عن هذا الطريق وهي المعاصي.

ولهذا جاء عن غير واحد من السلف في الفرق بينهما حال الاجتماع، وهذا يعني جاء في التفسير المأثور عن بعض السلف ابن عباس وغيره، قالوا: البر فعل المأمور، والتقوىٰ ترك المحظور، أي: اجتناب المنهي، فالبر فعل المأمور، ما أمر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به من أنواع الطاعات، والتقوىٰ اجتناب المنهي، اجتناب ما نهىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنه، تجتنب المنهي، واجتناب المنهي فيه دفع الضَّرر مثل ما ذكر ابن القيم، والبر الذي هو فعل الطَّاعات والأوامر من باب تحصيل المنافع واكتساب الأرباح العظيمة بالطاعات التي يقوم بها العبد، متقربًا بها إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قال: (فالتقوىٰ كالحِمْية والبر كالعافية والصحة).

وهذا بابٌ شريفٌ يُنتفع به انتفاعٌ عظيمٌ في فهم ألفاظ القرآن ودلالاته، ومعرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، فإنه هو العلم النَّافع، وقد ذم سبحانه في كتابه من ليس له علمٌ بحدود ما أنزله علىٰ رسوله، فإنّ عدم العلم بذلك مستلزمٌ مفسدتين عظيمتين:

إحداهما: أن يدخُل في مسمَّىٰ اللفظ ما ليس منه، فيُحكم له بحكم المراد من اللفظ، فيُسَوّىٰ بين ما فرّق الله بينهما.

والثانية: أن يُخْرِجَ مِن مسمَّاه بعضُ أفراده الداخلة تحته، فيُسْلَب عنه حكمه، فيفرَّق بين ما جمع الله بينهما.

نعم، قوله رحمه الله: (هذا باب شريف)، أي: معرفة الحدود، (حدود ما أنزل الله)، والحدود عندما يقول:

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ هذا في باب الأوامر، وأيضا في باب النواهي، فحدود الله التي هي أوامره التي أمر عباده بها ﷻ لابد من معرفتها من أجل أن يفعلها العبد، متقرِّبًا بها إلىٰ الله ﷻ، وحدوده التي هي النواهي، حدوده ﷻ التي هي النَّواهي، لابد من معرفتها من أجل أن يجتنبها العبد؛ لأن من لم يعرف حدود الله التي نهىٰ الله عنها كيف يجتنبها؟ ومن لم يعرف حدود الله التي أمر بها كيف يفعلها؟ فلابد من هذا الباب الشَّريف من العلم، معرفة الحدود، حدود ما أنزل الله ﷻ، وهذا يتناول باب الأوامر ويتناول باب النواهي ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧] الحُدود في الأوامر وكذلك في النّواهي، لابد من معرفة حدود الله التي هي أوامره لتُفعل، ولابد أيضًا من معرفة حدود الله التي هي نواهيه لتُجتنب وتُتَّقىٰ.

ومن لم يكن علىٰ معرفة، ما الذي يحدث؟ يقول: يستلزم (مفسدتين عظيمتين، أن يدخل في مسمىٰ اللفظ ما ليس منه، فيُحكم له بحكم المراد من اللفظ)، عندما أدخل في اللفظ ما ليس منه، وهذا من جهله بحدود الله، لأنه لو كان علىٰ علم بحدود الله لما أدخل فيها ما ليس منها، (فيسوِّي بين ما فرّق الله بينهما، والثانية أن يخرج من مسمىٰ) اللفظ (بعض أفراده الداخلة تحته، فيُسلب عنه حكمه فيفرق بين ما جمع الله بينهما).

والذكي الفطِن يتفطّن لأفراد هذه القاعدة وأمثلتها، فيرىٰ أنّ كثيرًا من الاختلاف أو أكثره إنما نشأ عن هذا الموضع، وتفصيلُ هذا لا يفي به كتابٌ ضخم.

ومن هذا لفظ الخمر، فإنه اسم شاملٌ لكل مُسكِر، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه، وينفىٰ عنها حكمه.

وكذلك لفظ الميسر، وإخراج بعض أنواع القِمَارِ منه.

وكذلك لفظ النكاح، وإدخال ما ليس بنكاح في مسمَّاه.

وكذلك لفظ الربا، وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس بربًا فيه.

وكذلك لفظ الظُّلم والعدل، والمعروف والمنكر... ونظائره أكثر من أن تحصىٰ.

والمقصود أنّ المقصود من اجتماع الناس وتعاشُرِهم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فيُعِين كلُّ واحدٍ صاحبَه علىٰ ذلك علمًا وعملًا.

فإنّ العبدَ وحدَه لا يَستقلُّ بعلمِ ذلك ولا بالقُدرَةِ عليه، فاقتضت حكمة الربِّ سبحانه أن جعل النَوعَ الإنساني قائمًا بعضه ببعضٍ، معينًا بعضه لبعض.

هذا كلام عظيم جدًّا، ينبّه فيه ابن القيم رحمه الله تعالىٰ علىٰ ما ينبغي أن يستفيده المسلم وطالب العلم من هذه

الآية العظيمة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، فيقول: (والمقصود أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون)، إن أخلفوا هذا الأمر، التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فلم يجعلوه مقصودًا لتعاشُرهم، حصل بينهم تعاونٌ علىٰ غير ذلك، أُشبِّه ما يقوله ابن القيم هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلام أهل العلم في اللسان، اللسان لابدَّ له من كلام، إن لم يشغله صاحبه بكلام فيه خيرٍ وفائدة، اشتغل بالباطل واللَّهو، والناسُ في اجتماعاتهم لابد من تعاون، في اجتماعات النَّاس لابد من تعاون، إن لم يكن هِمّتهم في اجتماعهم التَّعاون علىٰ البر والتقوىٰ انحرف أمر التَّعاون فيهم إلىٰ تعاونٍ علىٰ خلاف ذلك، ولهذا ينبغي علىٰ النَّاس أن يجعلوا من أنفسهم همَّة في اجتماعهم علىٰ التعاون الذي أمرهم الله به ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

قال: (والمقصود أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فيُعِينُ كلُّ واحدٍ صاحبه علىٰ ذلك علمًا وعملا، فإنّ العبد وحده لا يستقلّ بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه)، ولهذا لابد من تعاون، لابدّ من تعاون، وقد قال الله ﷻ لنبيِّه موسىٰ عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥] فالمؤمن بإخوانه، ومعونةً له علىٰ الخير وعلىٰ طاعة الله ﷻ، وكلما وفق المرء لإخوانٍ يشدون من أزره ويعينونه علىٰ طاعة الله، كان ذلك أكثر وأقوىٰ له في المُضي في طريق الخير والعبادة والتقرب إلىٰ الله ﷻ، والسلامة من المهالك.

قال: (فاقتضت حكمة الرب أن جعل النوع الإنساني قائمًا بعضُه ببعض، معينًا بعضه لبعض)، هذا أمرٌ جُعِلَ جِبلّة في الناس، لكن انظر ماذا يكون التعاون، بين الناس، التَّعاون موجود في كل المجتمعات؛ لكن من لم يجعلوا همَّتهم في تعاونهم علىٰ البر والتَّقوىٰ كما أمر الله، خرج بهم التعاون إلىٰ مذاهب شتَّىٰ وطرائق قِددًا، يتعاونون عليها ويتكاتفون تكاتُفًا عظيمًا، انظر مثلا ما جاء في الآية ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص] هذا تعاون علىٰ الصَّبر علىٰ الشِّرك، والبقاء علىٰ الكفر بالله ﷻ، وصدّ وردّ دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فهذه لفتة عظيمة جدًّا من ابن القيم مستفادة من هذه الآية أنّ التَّعاون موجود، والله ﷻ جعل النَّاس هذا شأنهم، معينٌ بعضُهم لبعض، فإن لم يجعلوا تعاونهم قائمًا علىٰ البر والتَّقوىٰ خرج إلىٰ مذاهب شتَّىٰ وطرائق متنوعة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢]

والإثم والعدوان في جانب النَّهي نظيرُ البرِّ والتقوىٰ في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان فرقٌ ما بين مُحَرَّمِ الجِنْس ومُحَرَّم القَدْر.

فالإثم: ما كان حرامًا لجنسه.

والعدوان: ما حُرِّمَ الزيادةُ في قَدْره، وتعدّي ما أباح الله منه.

فالزنىٰ، وشرب الخمر، والسرقة، ونحوها إثم.

ونكاح الخامسة واستيفاء المجنْيِّ عليه أكثر من حقه، ونحوه عُدوان.

فالعدوان: هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة].

وقال في موضع آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧] فنهىٰ عن تعديها في آية، وعن قربانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه، فيكون لها حكم مقابله، فبالاعتبار الأول نهىٰ عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهىٰ عن قربانها.

نعم، يوضّح هذا الذي ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في معنىٰ حدود الله، الحديث الذي فيه المثل العظيم الذي ذَكر النبي ﷺ أن الله ضربه للعباد، قال عليه الصلاة والسلام:

«ضربَ اللهُ تعالىٰ مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلَىٰ الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ، وعلىٰ بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ؛ ادخلوا الصراطَ جميعًا ولَا تَتَعَوَّجوا، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ محارِمُ اللهِ تعالىٰ، وذلِكَ الدَّاعِي علىٰ رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ» [صحيح الجامع].

قال عليه الصلاة والسلام: إن الله ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جَنْبَتَيّ الصراط أبواب، وعلىٰ الأبواب ستورٌ مُرْخَاة، وداعٍ من أول الصِّراط يقول: يا عباد الله أدخلوا الصراط ولا تعوجوا، وداعٍ من فوق الصراط يقول: يا عبد الله لا تفتح الباب، فإنك إن فتحته تَلِجْهُ. أما الصراط المستقيم فهو الإسلام، وأما السوران فحدود الله، وأما الأبواب المفتّحة التي عليها ستورٌ مرخاة فمحارم الله، وأما الداعي من أول الصراط فكتاب الله، وأما الداعي من فوق الصراط فواعظ الله في قلب كل مسلم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حدود الله هي النهاية الفاصلة بين الحلال والحرام، إذا ذكرت هذا المثل العظيم، وهو في حديثٍ صحيح ثابت في «المسند» وغيره، إذا ذكرت هذا المثل اتضح لك الأمر تمامًا، يقول: (حدود الله هي) النهاية الفاصلة أو (النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام)، ما كان داخل السور، ما كان داخل السورين ما هو؟ ما كان داخل السورين وأنت تمشي في داخل السُّورين في الصراط المستقيم، ما كان

داخل السُّورين هذا في حد الحلال، حد المشروع، حد المأذون، المأمور به، وما كان خارج السور أو خارج السورين هذا؟ الحرام، والحد الفاصل بينهما هذا السُّور، فاصل بين الحلال والحرام.

والأبواب التي عليها ستورٌ مرخاة، هذه منافذ يخرج منها والعياذ بالله من حاد عن الصراط، وانحرف عن الجادة وخرج عن حد الحلال إلىٰ حد الحرام والعياذ بالله، فـ(حدود الله هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارةً تدخل فيه فتكون منه، وتارةً لا تكون داخلةً فيه فيكون لها حكم مقابله، فبالاعتبار الأوَّل نهىٰ عن تعدِّيها، وبالاعتبار الثاني نهىٰ عن قُربانها)، مرَّةً نهىٰ عن تعدي الحدود، ومرةً نهىٰ عن قربانها، قال: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ هذا المنهي، وأما الذي أمر به وأباحه لا نتعدَّاه، لا نتجاوزه لغيره.

وحاصل القول في الفرق بين الإثم والعدوان، أن:

الإثم: المعاصي والذنوب بأنواعها.

والعدوان: الظلم بأنواعه، الظلم والتعدي بأنواعه.

فصلٌ

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونًا علىٰ البر والتقوىٰ علمًا وعملًا.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالىٰ فهو إيثار طاعته، وتجنُّب معصيته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾.

سبق أن قرر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في أول هذه الرسالة، أو أول هذه الوصية، أن الآية اشتملت علىٰ جميع مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم:

أما الذي بينهم بعضهم بعضًا ففي قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

وأما فيما بينهم وبين الله ففي قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي: حقِّقوا تقواهُ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتعظيمه، التَّعظيم اللائق به وبمعرفته ومعرفة عظمته وجلاله وبالإيمان به وتوحيده، وإخلاص الدِّين له سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقدره جل وعلا حقَّ قدره، وإيثار طاعته وتجنُّب معاصيه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا فيما يتعلَّق في حال العبد بينه وبين الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالىٰ فهو إيثار طاعته وتجنُّب معصيته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾

فأرشدت الآية إلىٰ ذِكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق.

نعم، الذي بينه وبين الخلق في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، والذي بين العبد وبين الحق؛ أي: الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾.

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر.

ولا يتمُّ له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام به لله إخلاصًا ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل علىٰ العبد في أداء هذين الواجبين، إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملًا.

نعم، هذا كلام عظيم جدًّا، ينبِّه فيه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ أهمية الإخلاص، وقصد الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعمل، وألّا يرىٰ الإنسان نفسه شيئًا؛ بل يؤدِّي ما يؤديه من أعمال، سواءً في ما يتعلَّق في تعاونه مع العباد علىٰ البر والتقوىٰ قربةً لله وطلبًا لما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك فيما يتعلَّق بحقوق الله وإيثار طاعته، والبُعد عن معاصيه، يؤدِّيها أيضا لأجله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطلب مرضاته، فيقول ابن القيم: (لا يتم الواجب الأول ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة، والإحسان، ورعاية الأمر)، انتبه لهذا، يقول ابن القيم: هذه دقيقة ينبغي التفطُّن لها، عزل نفسه من الوسط يعني: لمّا يأمر، لمّا يدعو، لمّا ينصح، لمّا يعظ، لمّا يخطب، لمّا يدرّس ويعلم، لمّا يؤلِّف ويكتب كتابًا، إلىٰ غير ذلك... قد تقفز نفسه هنا تطلب شيئا، فتقفز إلىٰ الوسط ليكون لها شيء، ما هو؟ شهرةً، صيتًا، سمعةً، ذكرًا، ثناءً... إلىٰ غير ذلك، تطلب ذلك، ويكون مقصودًا، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ينبغي أن يعزل نفسه من الوسط.

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في عزل نفسه من الوسط، الذي يعبّر عنه ابن القيم هذا التعبير يقول: وددت لو أن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا ولو قرِّض جسمي بالمقاريض! فقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨] قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد» لما أورد هذه الآية، قال: أدعو إلىٰ الله لا إلىٰ نفسي، لأن بعض الناس قد يدعو إلىٰ دين الله، إلىٰ الخير، إلىٰ الفضيلة، إلىٰ غير ذلك... لكنه مُبطّنٌ مع ذلك دعوة إلىٰ ماذا؟ إلىٰ نفسه! من حيث الصِّيت، الشهرة، السمعة، شيء جديد الآن في زماننا كسب الأصوات، يكون له أصوات كثيرة، هذه الأمور كلها يعزلها، ولا يقوم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ إلا بعزل النفس من الوسط، (والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر) فقط، يفعل ذلك نصحًا، ديانةً، تقرُّبًا لله لا يريد شيئا لنفسه، وإنَّما يفعل ذلك نُصحًا لله، رغبةً في أن يهتدي العباد وأن يفعلوا طاعة الله، أن يتقرَّبوا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا في جانب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

في جانب حقِّ الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ يقول: لا يتم أداء هذا الواجب (إلا بعزل الخلق من البين)، أن يكون بين العبد وبين الله في أدائه الطاعات وفعله لحقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، (بعزل الخلق من البين والقيام به لله، إخلاصًا ومحبةً

وعبودية)، فإذا جاء في العبادة، إذا جاء في باب العبادة (الصلاة والصيام والصدقة...) وأدخل الخلق هنا، كيف يدخلهم؟

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بما هو أَخْوفُ عليكم عندي مِنَ المسيحِ الدجالِ؟ الشركُ الخفِيُّ: أنْ يقومَ الرجلُ فيُصَلِّيَ فيُزَيِّنَ صلاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رجلٍ» [حسنه الألباني في صحيح الجامع].

(أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الشرك الخفي) قال: (يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر الرجل) فهذا لابد أن يعزل، عزل الخلق من البين؛ يعني: أن يكون بين العبد وبين الله في إخلاصه وعبادته لله، فإذا وُجد الخلق هنا خرج عن الإخلاص إلىٰ ماذا؟ إلىٰ الرِّياء، إلىٰ السُّمعة، إلىٰ غير ذلك من خوارم النِّيّة، فيحذر العبد من ذلك أشدّ الحذر، فيقوم به لله خالصًا ومحبةً وعبوديةً لله، قال: (فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كلُّ خلل يدخل علىٰ العبد في أداء هذين الواجبين، إنَّما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملًا)..

وهذا هو معنىٰ قول الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحَه: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطا.

والمقصود بهذه المقدمة ذكر ما بعدها.

قال (وهذا هو معنىٰ قول الشيخ عبد القادر) أي الجيلاني (قدس الله روحه: كن مع الحق بلا خلق، كن مع الحق) أي مع الله، (بلا خلق) أي: اعزل الخلق من البين بينك وبين الله، فاجعل عباداتك وأعمالك وطاعاتك وقرباتك... اجعلها كلها خالصةً لله، لا تبتغي بها إلا وجه الله ﷻ، وكن (مع الخلق بلا نفس)، يعني قصده رَحِمَهُ اللَّهُ من كونك مع الخلق بلا نفس، أي: لا تجعل لنفسك حظًّا، تطلب حظًّا لنفسك وتعامل الخلق وأنت تطلب محض حظِّ نفسك، يعني مثلًا بعض الناس قد يعظ ويذكر وهو في وعظه وتذكيره يبحث شيئًا لنفسه، يطلب شيئًا لنفسه، فكن مع الخلق بلا نفس، لا ترىٰ نفسك شيئًا، لا في ما تقدِّمه من علم ومن وعظ ومن تذكير، كل ذلك لا ترىٰ لنفسك شيئًا، واجعل ما تقولُه لهم محض نصيحة ورغبة في نفعهم وإفادتهم، وأن يكون صلاحهم بهذا الخير الذي ييسره الله ﷻ لهم من طريقك.

(ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيطٍ ولم يزل أمره فرطا)، ومعنىٰ (فرطا) أي: ضائعًا، يضيع عليه أمره، ولا يجتمع أمر الإنسان إلا بأن يُخلص دينه لله ﷻ، وأن يَقصد بعمله التقرب إلىٰ الله ﷻ وحده جل في علاه، قال: (والمقصود بهذه المقدِّمة ذكر ما بعدها)، سينتقل إلىٰ الحديث عن السير والسفر إلىٰ الله ﷻ، وما يحتاجه هذا السير، ما يحتاج إليه هذا السير من الزَّاد، وما الذي ينهض بالمُسلم للمحافظة علىٰ هذا السير وقوّته، كل هذا يأتي تفصيله في الفصل الآتي عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع قريب مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

٤/ ٤/ ١٤٤٠

فصلٌ

لمّا فصلت عيرُ السّيرِ، واستوطن المسافر دار الغُربة، وحيل بينه وبين مألوفاته وعوائده المتعلقة بالوطن ولوازمه، أحدثَ له ذلك نظرًا آخر، فأجال فِكره في أهمّ ما يقطع به منازل سفره إلىٰ الله، ويُنفق فيه بقية عمره، فأرشده من بيده الرُّشد إلىٰ أنّ أهمّ شيءٍ يقصِده إنما هو الهجرة إلىٰ الله ورسوله، فإنها فرضُ عينٍ علىٰ كل أحد في كل وقت، وأنّه لا انفكاك لأحد من وجوبها، وهي مطلوب الله ومراده من العباد.

إذ الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلىٰ بلد، وهذه أحكامها معلومة وليس المراد الكلام فيها.

والهجرة الثانية: هجرة بالقلب إلىٰ الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقية؛ وهي الأصل، وهجرة الجسد تابعة لها، وهي هجرة تتضمن (من) و(إلىٰ):

- فيهاجر بقلبه من محبة غير الله **إلىٰ** محبته.
- ومن عبودية غيره **إلىٰ** عبوديته.
- ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه **إلىٰ** خوف الله ورجائه والتوكل عليه.
- ومن دعاء غيره وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له، **إلىٰ** دعاء ربه وسؤاله والخضوع له والذل والاستكانة له...

وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه، قال تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الذاريات:٥٠] فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين، اللّٰهُمَّ علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما، وأصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

أما بعد.. هذا فصلٌ عظيم عقده الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في رسالته هذه المباركة «الرِّسالة التبوكية»، بيّن فيه مسألة مهمَّة عظيمة؛ بل هي فريضة من فرائض الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهي الهجرة إلىٰ الله ورسوله ﷺ، هجرةٌ إلىٰ الله جل وعلا: بالإخلاص، والإذعان، والعبودية، والذل، والخضوع، وحسن التوكل علىٰ الله، وحسن الإقبال

عليه جل في علاه.

وهجرة إلىٰ رسوله ﷺ: باتباعه، واتخاذه أسوة وقدوة، وبالاهتداء بهديه، ولزوم نهجه، وترسم خطاه، صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه الهجرة فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة، ويستشعر قيمتها وعظم شأنها عندما يستشعر أو عندما يتأمل في المدخل الذي دخل منه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الفصل، في الحديث عن موضوع الهجرة، وهو تصوير حال المسلم بأنه في هذه الدنيا كالمسافر، ولعل من أبين ما يبيّن هذا قول النبي ﷺ: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

فالمؤمن في هذه الدنيا في سفر، ولا يزال مع مرّ الأيام والشهور والأعوام يمتدُّ هذا السفر، ومن بعده الرحيل إلىٰ الله ولقائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيحتاج هذا المقام أن يتيقَّظ هذا المسافر، وأن يستشعر عِظم شأن هذا السفر الذي هو فيه، وهو السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والدار الآخرة، فينظر ماذا عليه أن يحمله من زادٍ للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويتصوَّر نفسه في هذه الدنيا كالغريب أو عابر السبيل، وأنتم تعلمون أنّ الغريب إذا دخل إلىٰ بلد، وأشدّ منه العابر للبلد عبورًا، لا يكون شأنه فيها كشأن المقيم المستوطن.

وهذا فيه أنّ هذا المسافر إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا ينبغي له أن تشغله الدنيا الزائلة الزائفة، وأن يشغله زُخرفها عن هذا السفر، الذي من بعده لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، من هنا دخل ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ للحديث عن الهجرة وأهميتها، قال: (فأرشده من بيده الرشد) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلىٰ (أن أهم شيء يقصده إنما هو الهجرة إلىٰ الله ورسوله) ﷺ.

والهجرة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالإخلاص، والإقبال علىٰ الله، وبالذل والخضوع والانكسار بين يديه، وتحقيق العبودية له جل في علاه.

والهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام: بالاتباع، والائتساء، والاقتداء بهديه الكريم ونهجه القويم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: فإن هذه الهجرة (فرض عين علىٰ كل أحد)، علىٰ كل مسلم ومسلمة وفي كل وقت، هذه الهجرة لا تتعلق بزمان ولا تتعلق بمكان، وإنما هي مطلوبة في كل زمان وفي كل مكان، من كل مسلم ومسلمة، و(لا انفكاك لأحد عن وجوبها)، فهي واجبة وجوبًا عينيا علىٰ كل مسلم ومسلمة في كل وقت وكل وزمان.

والهجرة المعنية هنا هي كما بيَّنها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (هجرةٌ بالقلب إلىٰ الله ورسوله)؛ لأن الهجرة نوعان: هجرة بالبدن وهجرة بالقلب.

هجرة البدن: من ديار الكفر إلىٰ ديار الإيمان، أو من ديار الخوف إلىٰ ديار الأمن، هذه لها أحكام معروفة

وتقرر كثيرا ولا سيما في كتب الفقه.

لكن هذه الهجرة الأخرىٰ «هجرة القلب» قليل من يتحدَّث عنها، كما ينبِّه علىٰ ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، مع عِظمها وأهميتها، (هجرة بالقلب إلىٰ الله ورسوله) ﷺ، قال: (وهي المقصودة هنا، وهذه الهجرة هي الهجرة الحقيقيّة، وهي الأصل) وهجرة الجسد تبعٌ لها.

ولهذا سبحان الله يوضِّح لك هذه التبعية، أنَّ من كان مثلا في ديار الكفر فحصل لقلبه هجرة إلىٰ الله ورسوله، أنعم الله عليه وأكرمه بهجرة قلبه إلىٰ الله ورسوله ما الذي سيحدث للبدن؟! الأمر ينتهي، لأن البدن تابع للقلب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، فالبدن تابع للقلب، والقلب متبوع في الخير والشر، إن صلح واستقام، صلح البدن واستقام، وإن فسد واعوج، فسد البدن واعوج، فالبدن لا ينفكّ عن متابعة القلب.

فالهجرة الحقيقية هجرة القلب- الهجرة الحقيقة هجرة القلب إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، إلىٰ الله بالعبودية، وإلىٰ الرسول بالمتابعة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(وهي هجرة تتضمن (من) و(إلىٰ)) مثلما أنّ هجرة البدن من وإلىٰ، من بلد إلىٰ بلد، هجرة القلب أيضا من وإلىٰ، من ماذا؟ وإلىٰ ماذا؟ ذكر أمثلة توضح، قال: (فيهاجر بقلبه) من محبة غير الله إلىٰ محبة الله، ومن عبودية غير الله إلىٰ عبودية الله، (ومن خوف غيره ورجائه والتوكل عليه إلىٰ خوفه) وحده سبحانه، (ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غيره) وسؤال غيره والالتجاء لغيره والخضوع لغيره والذل لغيره، إلىٰ الخضوع له والذل له والاستكانة له، وإفراده وحده ﷻ بالدعاء وصدق الالتجاء، (وهذا هو بعينه معنىٰ الفرار إليه)، في قوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ قال: (فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله) إلىٰ الله ﷻ.

وتحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، فإنّ الفرار إليه سبحانه يتضمن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما الفرار منه إليه فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأن كل ما في الكون من المكروه والمحذور الذي يفر منه العبد فإنما أوجبته مشيئة الله وحده، فإنه ما شاء كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن، وامتنع وجوده لعدم مشيئته. فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وُجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إليه.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتحت (من) و(إلىٰ)) فيما تقدَّم، الهجرة تحتاج من وإلىٰ، وضرب علىٰ ذلك أمثلة توضح

المراد، (تحت (من) و(إلىٰ) في هذا سر عظيم من أسرار التوحيد)، هذا السر الذي يتحدث عنه هو في شأن الفرار إلىٰ الله ﷻ، وهو الهجرة التي يتحدث عنها رحمه الله تعالىٰ، قد قال الله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥١﴾ [الذاريات].

وهذا الفرار إلىٰ الله ﷻ يتضمَّن ويندرج تحته نوعي التَّوحيد، توحيد الألوهية الذي هو الذُّل والخضوع لله ﷻ، وإفراده ﷻ بالعبادة، كما قال ابن القيم: (يتضمَّن إفراده بالطلب والعبودية) وهذا يسمَّىٰ التوحيد الطلبي، أو التوحيد العملي، توحيد الإرادة والطّلب، أو توحيد العبودية، (يتضمَّن إفراده بالطلب والعبودية ولوازمها من المحبة والخشية والإنابة والتوكل وسائر منازل العبودية، فهو متضمن لتوحيد الإلهية التي اتفقت عليه دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

مثلما قال الله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ...﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء]، قال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف]، فهذا موطن اتفاق في دعوة جميع المرسلين، بل إنّ أول ما يقرع سمع الأقوام من أنبيائهم هو هذا ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩، و٨ مواضع غيرها]، وهو معنىٰ لا إله إلا الله، كلمة التوحيد.

كما أنه يتضمَّن (توحيد الربوبية وإثبات القدر)، يتضمّن توحيد الربوبية: وهو إفراد الله ﷻ بأفعاله، وأنَّه وحده المدبِّر، وأنّ الخلق كلهم طوع تسخيره وتدبيره، لا خروج لهم عن نفوذِ مشيئته وشمولِ قدرته، (فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن)، لا مانع لما أعطىٰ ولا مُعطي لما منع، ولا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، ولا مُعز لمن أذل ولا مذل لمن أعز، ولا خافض لمن رفع ولا رافع لمن خفض، الأمر أمره، ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن] ﷻ.

وإذا أيقن المسلم أو كان المسلم من هذا علىٰ يقين، لم يجد إلا الفرار إلىٰ الله ﷻ، الفرار إلىٰ الله من كل شيء، يكون هو المَفزع، هو الملجأ، ويكون المؤمن علىٰ يقين أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ولا مفر إلا إليه ﷻ، (فهو متضمن لتوحيد الربوبية وإثبات القدر، وأنّ كل ما في الكون من المكروه والمحذور)، والأمور المخوفة التي يفر منها الناس، فإنما أوجبته مشيئة الله، لأنّ الأمر كلَّه بقدره ﷻ، كلّ شيء بقدر، (فإنه ما شاء) الله (كان ووجب وجوده بمشيئته، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم مشيئته، فإذا فر العبد إلىٰ الله فإنما يفر من شيء إلىٰ شيء وُجد بمشيئة الله وقدره، فهو في الحقيقة فارٌّ من الله إلىٰ الله).

ومن تصوّر هذا حقَّ تصوره فهِم معنىٰ قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**» وقوله ﷺ: «**لا ملجأ ولا منجىٰ منك ألا**

إليك» فإنه ليس في الوجود شيءٌ يُفرّ منه ويُستعاذ منه ويُلجأ منه، إلا وهو من الله خلقًا وإبداعًا، فالفارّ والمستعيذ: فارٌّ ممَّا أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هاربٌ من الله إليه، ومستعيذٌ بالله منه.

قال: (ومن تصور هذا حق تصوره فهم معنىٰ قوله ﷺ: «وأعوذ بك منك» وقوله: «لا ملجأ ولا منجىٰ منك ألا إليك»)، هذان دعاءان كلاهما ثابت عن نبينا ﷺ، الأول في باب التعوذ، والثاني في باب السؤال، وفيهما المعنىٰ الذي قرَّره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وأنّ العبد إذا حقَّق الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلَّها بمشيئة الله، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لم يكن فَزَعه في أي نائبة، ولم يكن فِراره في أي حدث أو نازلة إلا إلىٰ الله ﷻ، فيستعيذ بالله، ويلتجئ إلىٰ الله ﷻ، ويصمُد إليه وحده، فهو الذي تصمد إليه الخلائق، وهذا من معاني اسمه الصمد ﷻ، الذي تصمُد إليه الخلائق، أي: تلتجئ إليه وتعتصم به ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران].

قال: (فهو معنىٰ قوله: «وأعوذ بك منك») ومعنىٰ «لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك» وهذا في كل أمر يستعاذ منه، وفي كل أمرٍ يفر منه، وفي كل أمرٍ يطلب المرء النجاة منه والخلاص، لا مفر في شيء من ذلك إلا إلىٰ الله، ولا مفزع إلا إلىٰ الله ﷻ، «لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك» هذا جاء في حديث البراء الذي يقال في كل مرة يأوي فيها المسلم إلىٰ فراشه، هو تجديدٌ لهذا الإيمان وهذا الالتجاء، في كلِّ ليلة من الليالي يجدِّد المرء هذا الإيمان وهذا التسليم وهذا الالتجاء إلىٰ الله ﷻ.

(فالفارّ والمستعيذ: فارٌّ مما أوجبه قدر الله ومشيئته وخلقه، إلىٰ ما تقتضيه رحمته وبره ولطفه وإحسانه، ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه) وهذا إنما يكون علىٰ ما بيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ عند تحقيق الإيمان بالقدر ونفوذ المشيئة وشمول القدرة، وأن الله ﷻ هو المدبّر لهذا الخلق، وأنّ الخلق كلهم طوع تدبيره وتسخيره جل في علاه، مشيئته فيهم نافذة، وقدرته شاملة جل وعلا.

وتصور هذين الأمرين يوجب للعبد انقطاع علق قلبه من غير الله بالكلية، خوفًا ورجاء ومحبة، فإنه إذا علم أنّ الذي يفر منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخلقه، لم يبق في قلبه خوفٌ من غير خالقه وموجده، فتضمن ذلك إفراد الله وحده بالخوف والحب والرجاء، ولو كان فراره مما لم يكن بمشيئة الله ولا قدرته لكان ذلك موجبًا لخوفه منه، مثل من يفر من مخلوق إلىٰ مخلوق آخر أقدر منه، فإنه في حال فراره من الأول إلىٰ الآخر خائفا منه حذر، ألا يكون الثاني يعيذه منه، بخلاف ما إذا كان الذي يفر إليه هو الذي قضىٰ وقدّر وشاء ما يفر منه، فإنّه لا يبقىٰ في القلب التفات إلىٰ غيره بوجه.

وكل هذا إنما يتحقق للعبد مع تمام الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلها بمشيئة الله ﷻ، وأنه لا يمكن أن يقع في هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله، فإذا كان هذا الإيمان متحققا في قلب العبد، تحقق في قلبه هذا الفرار إلىٰ الله والفزع إليه، وتحقق هذا الإيمان والالتجاء، «**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»، كل هذه إنما تتحقق مع تحقق الإيمان بالقدر، وأنّ الأمور كلها بمشيئة الله ﷻ.

فتفطَّن لهذا السر العجيب في قوله ﷺ: «**أعوذ بك منك**» و«**لا ملجأ ولا منجىٰ منك إلا إليك**»، فإنّ الناس قد ذكروا في هذا أقوالًا، وقلّ منهم من تعرَّض لهذه النكتة التي هي لبّ الكلام ومقصوده، وبالله التوفيق.

فتأمل كيف عاد الأمر كله إلىٰ الفرار من الله إليه، وهو معنىٰ الهجرة إلىٰ الله تعالىٰ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»، ولهذا يقرن الله سبحانه بين الإيمان والهجرة في القرآن في غير موضع، لتلازمهما واقتضاء أحدهما للآخر.

والمقصود أنّ الهجرة إلىٰ الله تتضمن: هجران ما يكرهه، وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب إليه مما يهاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر، وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبه الله ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة ربه، فعليه في كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا ينفك في هجرةٍ حتىٰ الممات.

أورد هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»، وهذا فيه بيان الهجرة، وهذه الهجرة هي فريضة علىٰ كل مسلم، ومتعينة علىٰ كلّ مسلم أن يَهجر ما نهاه الله عنه، وهجر ما نهاه الله عنه بتركه وعدم قربانه مبني علىٰ هجرة القلب كما سبق البيان، فإنّ القلب إذا استقام بهذه الهجرة إلىٰ الله استقام البدن بفعل ما يحبُّه الله ﷻ والإقبال عليه، ومجانبة ما يُسخط الله ويغضبه جل في علاه، قال عليه الصلاة والسلام: «**والمهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**».

وهذا الحديث يمكن أن يكون مقياسًا للمرء وميزانًا في هذا الباب (باب الهجرة الواجبة المتعيِّنة)، لأنّ ضعفه وقصوره وتقصيره في هجر ما نهىٰ الله ﷻ عنه هو من ضعف هجرة قلبه إلىٰ الله ﷻ عبودية، وإلىٰ الرسول ﷺ متابعةً وتأسِّيًا واقتداءً بهديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (والمقصود أنّ الهجرة إلىٰ الله تتضمَّن: هجران ما يكرهه وإتيان ما يحب)، (هجران ما يكره): التي هي المعاصي والذنوب بأنواعها، (وإتيان ما يحب ويرضىٰ)، وهي الطاعات والقُرَب بأنواعها، قال: (وأصلها الحب والبغض)، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**أوثق عرىٰ الإيمان الحب في الله والبغض في الله**» وقال في

الحديث الآخر: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطىٰ لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**».

قال: (فإنّ المهاجر من شيء إلىٰ شيء لابد أن يكون ما يهاجر إليه أحب إليه مما يهاجر منه، فيؤْثر أحب الأمرين إليه علىٰ الآخر)، وهذا يوضح لنا المعنىٰ الذي في الحديث «المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه»، فيبغض الذنوب والمعاصي ويمقتها بقلبه ويكرهها، فيهجرها لله تعبُّدًا وطلبًا لرضىٰ الله، يتركها من أجل الله، ويحب الطاعات والقُرَب، ويفعلها تقربًا إلىٰ الله وطلبًا لمرضاته جلَّ في علاه، وفي الدعاء المأثور: «**اللّٰهُمَّ إني أسألك حبّك وحب من يحبك والعمل الذي يقربني إلىٰ حبك**».

قال: (وإذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوه إلىٰ خلاف ما يحبُّه الله ويرضاه، وقد بُلي بهؤلاء الثلاث، فلا تزال تدعوه إلىٰ غير مرضاة الله، وداعي الإيمان يدعوه إلىٰ مرضاة الله، فعليه كل وقت أن يهاجر إلىٰ الله، ولا ينفكّ في هجرة حتىٰ الممات)؛ لأن هذه الثلاث لا تزال متسلِّطة علىٰ العبد (النفس والهوىٰ والشيطان) لا تزال متسلِّطة علىٰ العبد تثنيه في سيره، وتعيقه في سفره إلىٰ الله ﷻ، وتقطع عليه طريق التزود لنيل مرضاة الله ﷻ، لاتزال هذه الثلاث تتسلَّط علىٰ العبد، فيحتاج العبد إلىٰ هجرة متجدِّدة، بمجاهدة عظيمة للنَّفس ليسلم، لينجو، ليس العجب ممَّن هلك كيف هلك! ولكن العجب ممن نجا كيف نجا! هذه أشياء كلها متسلطة علىٰ العبد تسلُّطًا عظيما، فيحتاج إلىٰ مجاهدة عظيمة حتىٰ تستقيم له هذه الهجرة، ويحتاج إلىٰ مداومة حتىٰ يبقىٰ علىٰ هذه الهجرة إلىٰ أن يموت، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر] أي: الموت، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

فصلٌ

وهذه الهجرة تقوىٰ وتضعف بحسب قوة داعي المحبة وضعفه، فكلما كان داعي المحبة في قلب العبد أقوىٰ كانت هذه الهجرة أقوىٰ وأتم وأكمل، وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة، حتىٰ إنه لا يكاد يشعر بها علمًا، ولا يتحرك بها إرادة.

محور الهجرة الذي عليه تدور، وأساسها الذي عليه تقوم: المحبة، محبة الله ﷻ، وهذه المحبة لله جل وعلا كلَّما قويت في القلب قويت الهجرة، قويت هجرة القلب إلىٰ الله، وكلَّما ضعفت ضعفت هجرة القلب إلىٰ الله ﷻ، فاحتاج مقامُ الهجرة إلىٰ الله ﷻ إلىٰ تقوية المحبَّة محبة الله ﷻ في القلب؛ لأنها كلما قويت قويت الهجرة، وكلما ضعفت ضعفت الهجرة، فاحتاج هذا المقام إلىٰ مداواة القلب ومعالجته، بتقوية محبة الله فيه، وهذه المحبة، محبة الله في القلب، لها جوالب تجلبها إلىٰ القلب، فيحتاج العبد إلىٰ عناية بهذه

الجوالب وهي عديدة، أهمها عشرة أمور ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتابه «مدارج السالكين»، عند كلامه علىٰ منزلة المحبة، وهي عظيمة جدًّا، يحتاج العبد إلىٰ أن يعتني بها قراءةً وتأملا وتحقيقا، فهذه الجوالب للمحبة، محبّة الله في القلب، تقوِّي المحبة في القلب، وإذا قويت المحبة قويت الهجرة، قويت هجرة القلب إلىٰ الله عبودية وذُلًّا وخضوعا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا ضعُفت ضعفت الهجرة، (إذا ضعُف الداعي ضعفت الهجرة)، الدَّاعي هو المحبة، (حتىٰ إنه لا يكاد يشعر بها علمًا، ولا يتحرك بها إرادة)، يعني لا تكون فيه لا من الناحية العلمية ولا من الناحية العملية.

والذي يُقضىٰ منه العجب: أنَّ المرء يوسع الكلام ويفرعُ المسائل في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام، وفي الهجرة التي انقطعت بالفتح، وهذه هجرة عارضة ربَّما لا تتعلق به في العمر أصلًا.

وأما هذه الهجرة التي هي واجبةٌ علىٰ مدىٰ الأنفاس، فإنه لا يحصِّل فيها علما ولا إرادة، وما ذاك إلا للإعراض عما خلق له، والاشتغال بما لا ينجيه وحده عما لا ينجيه غيره، وهذه حال من غشيت بصيرته، وضعُفت معرفته بمراتب العلوم والأعمال، والله المستعان، وبه التوفيق، لا إله غيره ولا رب سواه.

نعم، يعني يذكر أن الهجرة بالمعنىٰ الأول التي هي هجرة البدن، (هجرة الجسم)، يكثر الحديث عنها، ولا ملامة في ذلك، ولا سيما إذا كان الحديث عنها في ضوء الأدلة وتحقيقا للمسائل في ضوء الأدلة، لا ملامة في ذلك؛ لكن إن كان هذا الاشتغال ينصرف به المرء عن هذه الهجرة التي هي فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة، التي هي هجرة القلب إلىٰ الله عبوديةً، وهجرة القلب إلىٰ الرَّسول اتباعا ﷺ، وهي واجبة علىٰ مدىٰ الأنفاس، فينقطع عن الاشتغال بها لا علمًا ولا إرادة، فهذا هو الذي يتحدَّث عنه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ انتقادًا لمن كان كذلك، قال: (وما ذلك إلا للإعراض عما خُلق له، والاشتغال عما لا يُنجيه غيره)، هذا الذي ينجي، ولا تكون النجاة إلا بهذه الهجرة، التي هي فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة.

فصل

وأما الهجرة إلىٰ الرسول ﷺ، فمَعلمٌ لم يبق منه سوىٰ رسمه، ومنهج لم تترك منه بنيَّات الطريق سوىٰ اسمه، ومحجة سفَت عليها السوافي فطمست رسومها، وأغارت عليها الأعادي فغوّرت مناهلها وعيونها، فسالكها غريب بين العباد، فريد بين كل حيٍّ وناد، بعيد علىٰ قرب المكان، وحيد علىٰ كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظعنوا، ظاعن إذا قطنوا، منفرد في طريق طلبه، لا يقر قراره حتىٰ يظفر بأرَبه، فهو الكائن معهم بجسده، البائن منهم بمقصده، نامت في طلب الهدىٰ

أعينهم، وما ليل مطيه بنائم، وقعدوا عن الهجرة النبوية، وهو في طلبها مشمر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم، ويزرون عليه إزراءً علىٰ جهالاتهم وأهوائهم، قد رجموا فيه الظنون، وأذكوا عليه العيون، وتربصوا به ريب المنون ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء].

نحـــــن وإيــــاكم نمـــــوت ولا أفلــح عنـــد الحســـاب مـــن نـــدما

والمقصود: أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد، وطريقها علىٰ غير المشتاق وعير بعيد.

هذا الفصل يتحدث فيه الإمام ابن القيم رحمة الله عليه عن النوع الثاني من الهجرة، هجرة القلب إلىٰ الرسول ﷺ باتباعه ولزوم سنته واقتفاء آثاره صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ويُرجىٰ الحديث عنه إلىٰ لقاء الغد بإذن الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لطلب بعض الأحبة، ندعو الله ﷻ في هذه الساعة ونسأله بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين، نسأل الله ﷿ أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين، نسأله ﷻ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا أن يشفي مرضانا ومرضىٰ المسلمين بمنه وكرمه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع

٥/ ٤/ ١٤٤٠

فَصْلٌ

وأمّا الهجرة إلىٰ الرسولِ ﷺ فمَعْلَمٌ لم يبق منه سوىٰ رَسْمه، ومنهجٌ لم تترك منه بُنيّاتُ الطريقِ سوىٰ اسمه، ومَحَجَّةٌ سَفَتْ عليها السَّوافي فطَمَسَتْ رسومَها، وأغارت عليها الأعادي فغَوَّرت مناهلَها وعيونَها، فسالِكُها غريبٌ بين العباد، فريدٌ بين كل حيّ وناد، بعيدٌ علىٰ قرب المكان، وحيدٌ علىٰ كثرةِ الجيران، مستوحشٌ مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيمٌ إذا ظَعَنُوا، ظاعِـنٌ إذا قَطَنُوا، منفردٌ في طريقِ طلبه، لا يَقَرُّ قرارُه حتىٰ يظفرَ بأَرَبِه، فهو الكائنُ معهم بجسده، البائنُ منهم بِمَقْصَدِه.

نامت في طلبِ الهدىٰ أَعينُهم وما ليلُ مَطِيِّهِ بنائم، وقعدوا عن الهجرةِ النبويةِ وهو في طلبها مُشَمِّرٌ قائم، يعيبونَهُ بمخالفةِ آرائِهم، ويُزْرُونَ عليه إزراءً علىٰ جَهالاتهم وأهوائهم، قد رجَموا فيه الظُّنون، وأذْكَوا عليه العيون، وتربصوا به ريب المنون ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة]، ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء].

نَحْـنُ وإيَّـاكُم نمـوتُ ولا أفلـحَ عنـد الحسـابِ مَـن نَـدِما

والمقصودُ أنَّ هذهِ الهجرة النبويّة شأنُها شديد، وطريقُها علىٰ غيرِ المشتاقِ وعيرٌ بعيد.

بعيـدٌ علـىٰ كسـلانَ أو ذي ملالـةٍ وأمـا علـىٰ المشـتاقِ فهـو قريـبُ

ولعمرُ اللهِ ما هي إلا نورٌ يَتَلَأْلَأُ، ولكن أنتَ ظلامُه، وبدرٌ أضاءَ مَشارِقَ الأرضِ ومغارِبَـها، ولكن أنت غيمُهُ وَقَـتامُه، ومنهلٌ عذبٌ صافٍ ولكن أنت كَدَرُه، ومبتدأ له خبرٌ عظيمٌ، ولكن ليس عندك خبره.

فاسمعِ الآن شأنَ هذه الهجرةِ والدلالةِ عليها، وحاسِب نَفْسَكَ بينَكَ وبينَ الله هل أنت من المهاجرين لها أو المهاجرين إليها؟

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريكَ له وأشهدُ أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الفصل فصلٌ عظيم في تعظيمِ السُّنة، والحثِّ علىٰ الاتباع والاهتداء بهدي الرسولِ الكريم عليه الصلاة والسلام، والسيرِ علىٰ منهاجِهِ القويم، وأنَّ هذا السيرَ وَفق السُّنة والاتباعَ لهديهِ عليه الصلاةُ والسلامُ هو نجاةُ المَرء، فإنّ مَثَلَ السُّنَّة في تحقُّقِ النجاة بها كسفينةِ نوح، من رَكِبَها نَجىٰ ومن تركها هلك،

فالسُنَّة برُّ الأمانِ، وسبيلُ النجاة، وطريق الفوز برضىٰ الرحمن ﷻ.

وقد عقدَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الفصل وهو من أطولِ فصولِ هذه الرسالة وأوسعِها، حيث ساق فيه أدلةً كثيرة من كتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، شارحًا لها مبينًا مضامينَها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، كلُّها في هذا الباب: باب تعظيمِ السنّة وتَحكيمِها، وأن يكونَ المرء معظِّمًا لها ومُتبعا لهدي الرسولِ الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وسائرًا علىٰ مِنهاجه القويم.

وهذا الاتباع هو الهِجرة إلىٰ الرسول، قد عرفنا فيما بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ الهجرةَ نوعان:

هجرةٌ إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية.

وهِجرةٌ إلىٰ الرسولِ عليه الصلاة والسلام بالتأسِّي والمُتابعة.

وهذه الهجرة الناسُ فيها علىٰ قِسمين: قسمٌ مهاجِر، وقسمٌ هاجِر، كما أوضح ذلك ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

منهم من هو مهاجرٌ إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام وإلىٰ سنّتِهِ، متأسِّيًا مُعظِّمًا مقدمًا لها علىٰ الآراء والعقول والأذواق والمواجيد وغيرِ ذلك.

ومن الناس من هو هاجرٌ للسنّة، مُعْرِضٌ عَنها، مُحَكِّمٌ غيرها؛ بل ومقدِمٌ غيرها عليها في تحكيمِه، ولا نَجاةَ للعبد إلا بتحقيقِ هذه الهِجرة العظيمة إلىٰ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام باتباعه، ولُـزوم هَدْيه، والاقتداء بسنَّته صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه.

وذكر مقدمةً رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لهذا الفصل أراد منها أن ينهض بهمةِ المؤتسي بالرسول عليه الصلاة والسلام، وألا يستوحش مع قلة السالكين أو نُدرتهم، فإنّ المعتبَر في هذا الأَمر ما تتحقَّقُ به نجاةُ العبد وسلامتُه يوم يلقىٰ الله ﷻ، فعليه ألا يستوحش وإن قلّ السالك، وعليه أيضا ألا يغتر بالطُّرق الأخرىٰ وإن كَثُرَ السالك، فإنّ المُعْتبَر في الأعمال وقَبولِها إنما هو موافقة الهدي، هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وما كان علىٰ خلاف هديه مردودٌ علىٰ صاحبه وإن كَثُرَ العاملون به، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**من عَمِلَ عَملًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدّ**» [صحيح مسلم].

وكان يقول في خُطبَتِهِ: «**أمّا بعد، فإن أَصْدَقَ الحَديثِ كتاب الله، وخَيْرَ الهُدىٰ هُدىٰ مُحمدٍ ﷺ وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها**» [صحيح مسلم].

قال في حديث العِرباض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إنه من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافا كثيرا**» لم يقل قليلا، «**فعليكم بسنتي**» هذا الذي فيه النجاة «**وسنةِ الخلفاء المهديينَ الراشدين، تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ، وإياكُم ومُحدَثاتُ الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**» [هذه رواية صحيح أبي داود، وهناك روايات

أخرىٰ تختلف اختلافات يسيرة في صحيح الجامع، وصحيح ابن ماجه، والطحاوية للألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ]..

فحدُّ هذه الهجرةِ سفرُ الفِكْرِ في كُلِّ مسألةٍ من مسائل الإيمان، ونازلةٍ من نوازلِ القلوب، وحادثةٍ من حوادثِ الأحكام، إلىٰ معدِنِ الهُدىٰ ومنبع النور المُتلقىٰ من فم الصادق المصدوق، الذي لا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، فكل مسألةٍ طلَعت عليها شمس رسالتِهِ وإلا فاقذف بها في بحارِ الظّلمات، وكلُّ شاهدٍ عدَّله هذا المُزكِّي الصادق وإلا فَعُدّهُ من أهل الريبِ والتُهَمات، فهذا هو حدّ هذه الهجرة.

قبل ذلك قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فاسمع الآن شأن هذه الهجرة والدَلالة عليها)، (فاسمع) هذا فيه نُصحٌ منه، وحث رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ الانتباه لهذا الأمر (اسمع، اعلم، انتبه...) إلىٰ غير ذلك، يُراد بها استنهاض الهِمم، وطلب حسن الاستماع، حتىٰ يتحقق الانتفاع وتتحقق الفائدة، (اسمع الآن شأنَ هذه الهجرة والدلالة عليها وحاسِب نفسك)، الغرض من البيان الآتي لحقيقةِ الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام مع ذكر الأدلة، أن يحاسب المرء نفسه في ضوء ما ساقه رَحِمَهُ اللَّهُ من أدلة الكتاب العزيز، مُبينا لمضامينها ومعانيها وهداياتها، (حاسب نفسك بينك وبين الله هل أنت من المهاجرين لها) أو الهاجرين لها (أو المهاجرين إليها؟)

لأن الناس ما بين مُهاجر وهاجِر، مهاجر إلىٰ السنة تعظيما واتباعا، وهاجر عن السنة صدودا وإعراضا، الناس بين هذين القسمين.

ففي ضوء الأدلة الآتية يحاسِب المرء نفسه: هل هو مهاجر أو هاجر؟ هل هو مهاجر إلىٰ السنة أو هاجر لها معرضٌ عنها؟ ومن الخير للمرء أن يحاسب نفسَه قبل أن يحاسبه الله، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل العرض علىٰ الله ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة].

ثم بيّن رحمة الله عليه أنّ حدّ هذه الهجرة: أنَّ المرءَ في كل مسألة من المسائل التي تعرِض له يبحث رأسا عن الهدي النبوي فيها، يطلب هَدْيَ النبي ﷺ، ما الذي صح عنه؟ ما الذي ثبت عنه صلواتُ اللهُ وسلامُهُ وبَرَكاتُهُ عليه؟ في كل نازلة وفي كلِّ حادثة؛ يكون بحثه عن الهَدْيِ الذي صدر عن النبي ﷺ، قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، لأنّه عليهِ الصلاةُ والسلام (لا ينطقُ عنِ الهَوىٰ إن هُو إلا وحيٌ يوحىٰ).

ولْيَحْذَرْ أشدَّ الحذر من المسالك الكثيرة التي سلَكها الناس في طلبِ الهُدىٰ وهي إنما تبعدهم عنه، فإنّ الهدىٰ لا ينال إلا بالرجوع إلىٰ هَدْيِه عليه الصلاة والسلام، ولِزومِ غَرْزِه، والأخذِ من سنته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

فما للمقيم في مدينةِ طَبْعِهِ وعَوائِده، القاطِنِ في دارِ مَرْباهُ ومولده، القائلِ: إنّا علىٰ طريقةِ آبائِنا سالكون، وإنا بحبلهم مستمسكون، وإنا علىٰ آثارهم مقتدون، وما لهذه الهجرة!؟ قد ألقىٰ كله عليهم، واستند في معرفة طريق نجاته وفلاحِهِ إليهم، معتذرا بأنّ رَأيهم له خيرٌ من رأيه لنفسه، وأنّ ظنونَهم وآراءَهم أوثقُ من ظنهِ وحَدْسِه.

إذا كان المرء مقيمٌ علىٰ طبعِهِ، مقيمٌ علىٰ عوائِدِه، مُقيم علىٰ مألوفاته ومعتاداته في حياته، إذا كان مقيمًا علىٰ العوائد، عوائد الآباء والأجداد، لا يحيدُ عنها حتىٰ لو استبانت له السنّة وظهرت له معالمُها، فمثلُ هذا ماله (وما لهذه الهجرة!) فإن هذه الهجرة لم تتحقق فيه، ولم يتحقق فيه أنه من أهلها، كيف تكون متحققة فيه والسنة تستبين له بمعالمها ودلائلها وبراهينها البينات الواضحات فيتركُها لا لشيء إلا أنها تخالف العوائد التي اعتادها، والأشياء التي ألفها، وما عليه الآباء والأجداد!؟ وهذه عُقدة نفسية قديمة في الزمان، صدّت كثير من الناس عن الحق ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢] هذه عقدة نفسية قديمة في الزمان صدت كثير من الناس عن الحق، فكثير يتبين له الحق، وتظهر له معالمُه، وتستبين له السنة واضحة، فيتركُها لا لشيء إلا لأَنها تخالف ما عليه الآباء والأجداد، تخالف الأمور التي ألفها واعتادها منذ صغره ونعومةِ أظفارِه.

ولا ينفك من هذه العقدة إلا من نجّاه الله وسلّمه وعافاه، ورَزَقَهُ تعظيم سُنَّةِ النّبي عليه الصلاة والسلام، فتتحقق له هذه الهجرة العظيمة التي يتحدث عنها رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ.

فمن كان مُقيمًا علىٰ العوائد، علىٰ طرائق الآباء والأجداد، وتستبين له السُّنّة فلا يقبل عليها، ماله ولهذه الهجرة!؟ ليس من أهلها، ليس من أهل هذه الهجرة، وإنما يكون من أهل هذه الهجرة أنه كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: إذا استبانت للمرء سنة النبي عليه الصلاة والسلام فإنه لا يدعُها لقول أحدٍ كائنا من كان.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

ولو فتّشتَ عن مصدرِ هذهِ الكلمةِ لوجدتها صادرةً عن الإخلادِ إلىٰ أرضِ البطالة، متولدةً بينَ بعلِ الكسلِ وزوجتِهِ المَلالَة.

نعم، يعني هذه الكلمة التي يَرُدُّ بها كثيرون الحق الثابت والسنّة الصحيحة عن النبي عليه الصلاة والسلام، يجد أنها صادرة عن الإخلاد إلىٰ الأرض، ومُتَوَلِّدَة بين الكسل والملالة، اجتمع فيمن كان كذلك الكسل والملالة، وإلا لو أنّهُ نَهَضَ بنفسه، ومضىٰ بعزيمته، وحرِصَ علىٰ الحق، وتتبعه في مظانّه، لوجد الهَدْيَ البَيِّن، والصراط الواضح المستقيم.

ﮋﮋ ◊ ﮊﮊ

والمقصودُ أنّ هذه الهجرة فرضٌ علىٰ كل مسلم، وهي مقتضىٰ شهادةِ أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ، كما أن

الهجرةَ الأولىٰ مقتضىٰ شهادةِ ألا إله إلا الله.

هذه الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع، والائتساء، والاقتداء، والتقيد بهديه عليه الصلاة والسلام، هذه فريضة علىٰ كل مسلمٍ ومسلمة، والأعمال أيًّا كانت ومهما كثرت لن تكون مقبولةً من العاملين بها إلا إذا كانت وَفق الهدي، وإلا فهي مردودة غير مقبولة من صاحِبها «**من عَمِلَ عَملًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ رَدّ**» [صحيح مسلم]، أي: مردودٌ علىٰ صاحبه غير مقبول منه.

فهذه الهجرة فريضة، لأنَّ الأعمال لا تكون مقبولة مَرضية عند الله ﷻ إلا وَفْق هذه الهجرة، وَفق هذا الاتباع لهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، (وهي مقتضىٰ شهادة أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ)، لأنَّ مقتضىٰ هذه الشهادة طاعتُه فيما أمر، وتصديقُه فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤] لأجل هذا أُرسلت الرُّسل، لأجل أن يُطاعوا، تُمتَثَل أَوامرُهم، تُصَدَّق أخبارهم، يُنتهىٰ عما نَهَوْا عَنْه، ولا يَتحقَّق الإيمان بِهِم إلا بتحقِيق ما تقتضيه الشهادة لهم بالرسالة، فشهادةُ أنّ محمدًا رسولُ الله ﷺ هي طاعَتُه فيما أمر، وتصديقُهُ فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

(كما أن الهجرة الأولىٰ مقتضىٰ شهادة ألا إله الا الله)، الهجرة إلىٰ الله بالعبودية والإخلاص هي مقتضىٰ شهادة ألا إله الا الله، فهاتان الشهادتان فيهما نوعان من التوحيد:

الأولىٰ شهادةُ ألا إله إلا الله: فيها توحيدُ المُرسِل – الله جَلَّ وعلا – بالعبودية، وإخلاص الدين له ﷻ.

والثانية شهادة أنَّ محمدا رسول الله ﷺ: فيها توحيد المُرْسَل ﷺ بالاتباع، بتجريد المتابعة، والاهتداء بهديه الكريم عليه الصلاة والسلام.

وعن هاتين الهجرتين يُسألُ كلُّ عبدٍ يومَ القيامةِ وفي البرزخِ، ويُطالبُ بهما في الدنيا، فهو مُطالب بهما في الدور الثلاثة، دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: كلمتانِ يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

يقول ابن القيم (عن هاتين الهجرتين) – أي الهجرة إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاقتداء والمتابعة – (يُسأل كل عبد يوم القيامة)، كل عبد يوم القيامة يُسأل، قال الله جل وعلا في أواخرِ سورةِ القصص – وفي صلاة العشاء البارحة استمعنا إلىٰ هذه الآيات – قال جل وعلا: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص] وبعدها بآيات قال: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ

أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ [القصص]، فالأول: سؤال عن لا إله إلا الله، والثاني: سؤال عن محمد رسول الله ﷺ:

الأول: سؤال عن (لا إله إلا الله)، وجواب ذلك: أن يخلص العبد دينه لله، وأن يفرد الله ﷻ بالعبادة.

والثاني: ماذا أجبتم المرسلين؟ بتجريد المتابعة للرسول الكريم، وحسن الاقتداء بهديه صلوات الله وسلامه عليه.

يُسأل العبد يوم القيامة كما في الآيتين المشار إليهما من سورة القصص، ويُسأل (في البرزخ) كما في الحديث: «**يأتيه ملكان ويجلسانه ويقولان: من ربك؟ ... ومن نبيك؟**» [صحيح أبي داود وغيره]، الأول سؤال عن لا إله إلا الله، والثاني سؤال عن محمد رسول الله ﷺ.

كما أنه مُطالب بهما (في الدنيا)، مُطالب بهما: أي بهاتين الهجرتين في الدنيا، بأن يكون مخلصا لله، مُتّبِعا للرسول الكريم صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه، (قال قتادة رحمه الله) تعالىٰ: (كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟).

وهاتان الكلمتان هما مضمون الشهادتين، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، فأقسم سبحانه بأَجَلِّ مقسمٍ به، وهو نفسه عز وجل، علىٰ أنهم لا يَثْبُتُ لهم الإيمان ولا يكونوا من أهله حتىٰ يُحَكِّموا رسوله في جميعِ مواردِ النِّزاع، وهو كلُّ ما شَجَرَ بينهم من مسائلِ النِّزاعِ في جميعِ أبوابِ الدين، فإن لفظةَ ﴿ما﴾ من صِيَغِ العُموم، فإنها موصولةٌ تَقْتَضِي نَفْيَ الإيمانِ إذا لم يوجد تحكيمُهُ في جميعِ ما شجر بينهم.

ولم يقتصر علىٰ هذا حتىٰ ضمّ إليه انشراحَ صدورِهِم بِحُكْمِهِ، حيث ﴿لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ وهو الضِّيق والحَصَرُ من حكمه؛ بل يتلقّوا حُكمه بالانشراح ويقابلوه بالقَبول، لا أنّهم يأخذونه علىٰ إغماضٍ، ويشربونه علىٰ أقذاء، فإنّ هذا مُنافٍ للإيمان؛ بل لابدَّ أن يكون أخذه بقبولٍ ورِضىٰ وانشراحِ صَدْر.

بدأ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ من هذا الموطن بِسَوقِ الأدلة من القرآن الكريم علىٰ هذه الهجرة، الهجرة إلىٰ الرَّسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع، والتعظيم لسُنّتِهِ، والاهتداء بِهَدْيِهِ، وتَحكيمِهِ عليه الصلاة والسلام في كل حادِثة وفي كل نازلة وفي كلِّ أمر، وأن يكون المعَوَّل علىٰ ما جاء عنه وثبت عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فبدأ بسَوْق الأدلة، وساق أدلة كثيرة ربما يحسُن بكم أن تُرَقِّموها من أجل أَنْ تُضْبَط فيما بعد دليلا دليلا، أنه ساق أدلة كثيرة هذا الأول منها، وهو قول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والطريقة التي سلكها: أنّه يذكر الدليل ثم يُبَيِّن ما يشتمل عليه من المعاني العظيمة والمضامين المهمَّة في هذا المطلب، الذي هو الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام اتباعًا واقتداءً وائتساءً بهديه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

بدأ بهذه الآية وهي قولُ اللهِ جَلَّ وَعَلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، وبيّن رَحْمَةُ الله عليه أنَّ هذا قَسَم من الله (بِأَجّل مقسم به وهو نفسه) جَلَّ وَعَلا، أَقْسَمَ بِنفسه جَلَّ وَعَلا (علىٰ أنهم لا يثبت لهم الإيمان، ولا يكونون من أهله حتىٰ يُحَكِّموا) الرسول، حتىٰ يكونوا محكِّمين له صلوات الله وسلامه وبركاته عليه (في جميع موارد النزاع) ومواطن الخلاف، وفي (كل ما شَجَرَ بينهم في جَميع أَبوابِ الدين)، أَخْذًا من قوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، هذا عام في كل مَسألة وكل أمر وقع فيه تَنازُع أو خِلاف، (فإنّ لفظة ﴿ما﴾ من صِيَغِ العُموم، فإنها موصولة تقتضي نفيَ الإيمان إذا لم يوجد تحكيمه جميع ما شجر بينهم)، وهذا يتطلب من المسلم أن يكون هكذا في كل المسائل، وفي جميع الأمور التي يكون فيها خِلاف، أَنْ يرد النزاع إلىٰ حُكم النبي عليه الصلاة والسلام، بحيث يكون هو عليه الصَّلاة والسلام المُحَكّم والذي لِهديه وقوله عليه الصلاة والسلام وما جاء عنه يكونُ لذلك الحُكم في كلِّ نازلة، حتىٰ يُحكموه عليه الصلاة والسلام فيما شجَر بينهم.

قال: (ولم يقتصِر علىٰ هذا، حتىٰ ضمَّ إليه انشراح) الصدر، قد يكون الإنسان يُحكّم ويجد في صدره عدم انشراح، أيضًا مطلوب من العبد أنْ يُقبل علىٰ السُّنة مُحَكِّمًا لها، منشرحًا صدرُه بذلك، لِما قام في صدره من التَّعظيم لهَدْي النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، (لا أنهم يأخذونه) – أي الحُكم الصادر عنه – (علىٰ إغماض، ويشربونه علىٰ أقذاء)، يعني علىٰ كراهية وعدم ارتياح، (فإنّ هذا منافٍ للإيمان؛ بل لا بد أن يكون أخذه بقَبولٍ ورضىٰ وانشراحِ صدرٍ).

ومتىٰ أرادَ العبد أَنْ يعلمَ منزلتَهُ من هذا، فلينظر في حاله، وليطالع قلبه عند ورود حُكْمِهِ علىٰ خِلاف هواه وغَرَضِه، أو علىٰ خِلاف ما قلّد فيه أَسْلافَه من المسائل الكِبار وما دونها ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

فسبحانَ اللهِ كَمْ من حَزازةٍ في قلوبِ كثيرٍ من الناس من كثيرٍ من النصوص، وَبِوُدِّهِم أَنْ لَوْ لم ترد؟ وكم من حرارةٍ في أكبادهم منها؟ وكم من شجًىٰ في حُلوقِهم مِنْ مَوْرِدِها؟

سَتبدو لَهُم تِلْكَ السَّرائِرُ بالذي يَسوءُ وَيُخْزي يومَ تُبْلىٰ السَّرائِرُ

هذه الحزازة التي يشير إليها رَحِمَهُ اللَّهُ، والحرارة التي في القلوب تجاه السُّنة عندما يورَد الحديث عن النبي الكريم عليه الصّلاة والسلام، منشؤُها تعظيم العقول والآراء، وتعظيم أيضا الأذْواق التي تكونُ للمَرْءِ في بعض العبادات، التي يجد مثلًا لها في نفسه ذَوْقًا، تُقبِل عليها نفسُهُ ثم يأتيه حديثٌ يعارِض هذا الذوق الذي عنده، فإذا جاءت النُّصوص مخالفةً لهذه الأشياء تأتي هذهِ الحزازة، وكلما كانت هذه الأمورِ مُتَجَذِّرَة ومُتَعَمِّقَة في

القلوب تشتدُّ حزازة المرء، كل ما تلوَّثت القلوب بالأهواء وظُلمتِها اشتدَّت هذه الحزازة في القلوب.

وإن كان المرء مُعظِما للعقل مقدِّمًا له علىٰ النقل، إن جيء له بالأحاديث نفرت نفسه منها، أذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الصواعق»، ذكر مناظرةً دارت بينه وبين بعض المتكلِّمين، فأورد هو رَحِمَهُ اللَّهُ أو أحد الحاضِرين حديثًا في إثباتِ صفة من صفاتِ الله، والتي كانت المناظرة حولها، قال متحدِّثًا عن الخصم الذي أمامه قال: فأعرض بوجهه كأنَّما ذاقَ أخبثَ طعمٍ، أو شمَّ أنتنَ ريح! لما أورد له حديثا، حديث صريح في الباب، أعرض كأنَّما ذاق أخبث طعم أو شم أنتن ريح.

عندما تُظلم القلوب بالأهواء والآراء وظُلمات البِدع، إذا جيء بالحديث المخالف لما هو عليه تأتي هذه الحزازة، وكلّما كان التلوث بالأهواء أشد تقوىٰ هذه الحزازة في القلوب، ولهذا تجد من هؤلاء إذا عُرِضَت عليه أحاديث لا تخالف شيئًا من أهوائه يتقبلها بدون تردُّد، فإذا عُرِضَ عليه حديثٌ صحيحٌ يخالِف هواه وُجدت هذه الحزازة والحرارة في قلبه والنُّفرة.

مُرادُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنَّ هذه الأُمور تكشف للمرء حقيقةِ حالِه، وتُوضح له هل هو فعلا من المهاجرين أو الهاجرين؟ هل هو من المُهاجرين إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام أو من الهاجِرين لسنته المعرضين عن هَدْيِه صلواتُ الله وسلامه وبركاته عليه؟

ثم لم يقتصر سبحانه علىٰ ذلك حتىٰ ضم إليه قوله: ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٦٥﴾، فذكر الفعلَ مؤكِّدًا له بمصدرِهِ القائِمِ مَقامَ ذِكْرِهِ مرّتين، وهو الخضوعُ لَهُ، والانقياد لما حكم به طوعًا ورِضىٰ، وتسليمًا لا قهرًا ومُصابرة، كما يُسَلِّمُ المقهورُ لمن قهره كُرها؛ بل تسليمُ عبدٍ مُحبٍ مُطيعٍ لِمَوْلاهُ وسيدِهِ الذي هو أحب شيءٍ إليه، يعلمُ أنّ سعادَتَه وفلاحَه في تسليمِهِ إليه، ويعلمُ بأنَّهُ أولىٰ به من نفسه، وأبرُّ بهِ مِنها، وأرحمُ بِهِ مِنها، وأنصَحُ له منها، وأعلمُ بِمَصالحه منها، وأقدرُ علىٰ تحصيلها.

مثل ما جاء في الآية الكريمة ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم...﴾ [التوبة:١٢٨] وفي الآية الكريمة الأخرىٰ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦].

وسَيَأْتي فوائد عظيمة جدًّا ذكرها حول هذه الآية رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، فالحاصل أنَّه إضافة إلىٰ ما سبق وهو أنّ التحكيم يكون للرسول عليه الصلاة والسلام ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ونفي الإيمان عمّن لم يكن كذلك، أضاف إلىٰ ذلك انشراح الصدر، (ثم لم يقتصر علىٰ ذلك سبحانه حتىٰ ضمّ إليه ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٦٥﴾) أي: يُذعنوا إذعانا وينقادوا انقيادًا، طوعًا ورِضًا لا قهرًا وكرهًا؛ بل يُسلموا تَسليمَ الرّاضي المُذْعِن المُنقاد المُمْتَثِل لأَمر وهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

فمتىٰ عَلِمَ العبدُ هذا من الرسول ﷺ، استسلم له، وسَلّمَ إليه، وانقادت كُلُّ ذَرَّةٍ من قلبه إليه، ورأىٰ أنه لا سعادةَ له إلا بهذا التسليمِ والانقياد، وليس هذا مما يحصلُ معناه بالعبارة؛ بل هو أمرٌ قد انشقَّ له القلب واستقر في سويدائه، لا تفي العِبارة بمعناه، ولا مطمع في حصوله بالدعوىٰ والأماني

فكـــلٌّ يَـــدّعون وِصـــالَ لَيْلَـــىٰ ولكـــن لا تُقِـــرُّ لهـــم بِـــذاكا

نعم، يعني هذا الذي يذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس فقط مجرد كلام أو مجرد دعوىٰ، فالأمر ليس بالدعاوىٰ وليس بالأماني، مثل ما في الآية الكريمة ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣] وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، فليست العبرة في هذا الباب بالدَّعاوىٰ ولا بالأماني، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي، ولكنّ الايمان ما وَقَرَ في القلب وصدّقته الأعمال.

وفرقٌ بين علم الحب وحال الحب، فكثيرا ما يشتبه علىٰ العبد علم الشيء بحالِه ووجوده، وفرقٌ بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مثخنٌ بالمرض، وبين الصحيح السليم وإن لم يحسن وصف الصحة والعبارة عنها، وكذلك فرقٌ بين وصف الخوف والعلم به، وبين حاله ووجوده، وتأمل تأكيده سبحانه لهذا المعنىٰ المذكورِ في الآية بوجوه عديدة من التأكيد.

الآن لمّا قرر رحمةُ الله عليه هذا التقرير المتين والعبارات الواضحة، عاد مرة أخرىٰ - وهذا من متانة العلم وحُسن البيان وجمال النُّصح - عاد مرة أخرىٰ إلىٰ الآية ليزيدَ تقرير هذا الأمر وضوحا، وما اشتملت عليه من وجوه التأكيدات علىٰ هذا المطلب العظيم الذي هو تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام، فذكر تأكيداتٍ عديدة اشتملت عليها هذه الآية (وتأمل تأكيدَهُ سبحانَهُ لهذا المعنىٰ المذكور في الآية بوجوه عديدة من التأكيد) المعنىٰ المذكور الذي هو التحكيم، تحكيم الرسول فيما شجر صلوات الله وسلامُه عليه، أكّد الله هذا المعنىٰ بتأكيداتٍ عديدة.

أوّلُها: تصديره بلا النافية، وليست زائدةً كما يظنّ من يظنّ ذلك، وإنما دخولُها لسرٍّ في القسم، وهو الإيذان بتضمن المُقْسَم عليه للنفي، وهو قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [لنساء:٦٥] وهذا منهجٌ معروف في كلام العرب، إذا أقسموا علىٰ نفي شيء صَدَّروا جُملةَ القسم بأداةِ نَفي، مثلَ هذه الآية، ومثل قول الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لاها الله.

الهاء هنا مثل الواو في القسم، (لاها الله) يعني لا والله.

لا يَعْمِدُ إلىٰ أسَدٍ من أُسْدِ اللهِ يقاتلُ عن اللهِ ورسولِهِ فيُعطيكَ سَلَبَه.

المقصود بالأَسَد من أُسد الله في هذا الحديث أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأنّ هذا له قصة، هذا القسم له قصة، ولمّا أقسم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا القسم بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام صدَّقَ، قال: «**صدق**» [صحيح البخاري ومسلم]، لأنَّ أبا قتادة في غزوة حُنين أتىٰ إلىٰ أحد المشركين من ورائِهِ وضربَهُ بالسيف، فالتفتَ إليه هذا المشرك وقد بقي فيه شيء من الرَّمَق، فضمّ أبا قتادة حتىٰ -يقول- شارَفْتُ من ضمَّتِهِ علىٰ الموت، يعني شدَّهُ، يقول: حتىٰ أرخاهُ الموت، فانفلتُّ منه وإلا يقول شارفت علىٰ الموت من ذلك، ثم بعد ذلك طَلَبَ مَنْ يشهد له أنَّ سَلَبَهُ له، لأن النّبي ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ قَتيلًا [لهُ عليهِ بيّنة] فَلَهُ سَلَبَهُ**» [صحيح البخاري ومسلم] أعاد ذلك، ثم قال رجل: أشهد أنَّه قتله، وَسَلَبُهُ عندي فَأَرْضِهِ يا رسولَ الله، أَرْضِهِ يعني أرضي أبا قتادة بحيث يبقي السلب لي، أرضه يا رسول الله، فقال حينئذٍ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لاها الله) يعني لا والله، (لا يَعْمَد إلىٰ أسَد من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ورسوله فَيُعطيك سَلَبُه)، السَلَب له؛ لأبي قتادة، قال النبي ﷺ: «**صدق**» وأمره أن يعطي أبا قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السَّلَب.

الشاهد من إيراد كلمة أبي بكر أنه لما أقسم بالله جاء بلا النافية في أول القسم، وهي مُشعرة إلىٰ أنَّ المُقسم عليه نفي، وهو قوله: (لا يعمِد إلىٰ أسد من أسد الله).

وأورد أبياتا من الشعر فيها نفس المعنىٰ.

وقال الشاعر:

فـــلا وأبيـــكِ ابنـــة العـــامريِّ لا يـــدّعي القـــومُ أنِّـــي أَفِـــرّ

وقال الآخر:

فـــلا والله لا يُلْفـــىٰ لِمـــا بـــي ولا لِلَـــــــديهم أبـــــــدًا دواءُ

(فلا والله لا يُلفىٰ لما بي)، أي: من الكَدَر، (ولا لِلَديهم أبدًا دواءُ)، (للديهم) أي الحسدَ الذي فيهم ليس له دواء، لا للكدرَ الذي بي ولا للحسد الذي بهم دواء، وقولُه: (ولا للديهم) في رواية لهذا البيت (ولا لِما بهم)، ويقصِد لديهم أو بهم يقصد الحسد الذي عند هؤلاء، يقول ليس عند الحسد الذي عند هؤلاء دواء، ولا أيضا الكدر الذي عندي.

وهذا في كلامِهِم أكثر من أن يُذكر.

الشاهد من البيت أنه لمّا كان في المُقسَم عليه نفي، صدّر القسم بلا النافية.

وقال: (وهذا في كلامهم أكثر من أن يُذكر).

وتأمّل جُملَ القسم التي في القرآن المُصَدّرةِ بحرف النفي، كيف تجدُ المقسم عليه منفيًا ومُتَضَمِّنًا لنفي، ولا يَخْرُمُ هذا قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ [الواقعة]، فإنّه لمّا كان المقصود بهذا القسم نَفْيُ ما قاله الكفار في القرآن: من أنه شِعرٌ أو كهانةٌ أو أساطيرُ الأولين، كيف صدّر القسمَ بأداةِ النفي، ثمَّ أثبتَ له خِلاف ما قالوه، فتضمنت الآيةُ معنىٰ: ليس الأمرُ كما يزعمون، ولكنّه قرآن كريم.

يعني تضمنت الآية معنىٰ نفي وإن كان ليس فيها تصريحٌ بنفي، لكنَّ فيها معنىٰ النفي، نعم، (ليس الأمر كما يزعمون) من أنه قول كاهن أو قول شاعر أو أساطير الأولين، ليس كما يزعمون، بل هو (قرآن كريم) مُنَزّل من رب العالمين ﷻ.

ولهذا صرّح بالأمرين النفي والإثبات في مثلِ قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩﴾ [التكوير]، وكذلك قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة].

والمقصودُ أنَّ افتتاحَ هذا القَسمِ بأداةِ النّفي يقتضي تقويةَ المُقسمِ عليه وتأكيدَه وشدةِ انتفائه.

وثانيها: تأكيدُه بنفس القسم.

يعني ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ [النساء:٦٥]: تأكيد بالقسم، الأول: بلا النافية، والثاني: بالقسم.

وثالثها: تأكيده بالمُقسم به، وهو إقسامه بنفسه لا بشيء من مخلوقاته، وهو سبحانه يقسم بنفسه تارةً وبمخلوقاته تارة.

ورابعها: تأكيدُه بانتفاءِ الحرجِ ووجودِ التسليم.

وخامسُها: تأكيد الفعل بالمصدر.

أي: تسليما؛ ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾.

وما هذا التأكيدُ والاعتناءُ إلا لشدةِ الحاجةِ إلىٰ هذا الأمرِ العظيم، وأنه مما يُعتنى به، ويُقَرَّرُ في نفوسِ العباد بما هو من أبلغِ أنواعِ التقرير.

نعم انتهىٰ الآن كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الدليل الأول، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥﴾.

ثم ذكر الدليل الثاني علىٰ هذا المطلب، وهو قولُ الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] ونكتفي بهذا.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمُنا.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

اللَّهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس

٦/ ٠٤/ ١٤٤٠

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] وهذا دليلٌ علىٰ أنَّ من لم يكن الرسولُ أولىٰ بِهِ من نفسهِ فليسَ من المؤمنين، وهذه الأولويةُ تتضمن أمورا:

منها أن يكونَ أحبَّ إلىٰ العبد من نفسه؛ لأن الأولويةَ أصلُها الحب، ونفسُ العبدِ أحبُّ إليه من غيره، ومع هذا فيجبُ أن يكونَ الرسولُ أولىٰ به منها، وأحبَّ إليه منها، فبذلك يحصلُ له اسمُ الإيمان.

ويَلزَمُ من هذه الأولويةِ والمحبةِ كمالُ الانقياد والطاعةِ والرضىٰ والتسليمِ، وسائرُ لوازمِ المحبّة من الرضىٰ بحكمه، والتسليمِ لأمره، وإيثارِه علىٰ كل من سواه.

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابهِ أجمعين.

أمّا بعد.. هذا الدليل الثاني من الأدلة، أدلة القرآن الكريم التي ساقها ابنُ القيم رحمةُ الله عليه في بيان ما يتعلق بهذا المطلب العظيم، والذي هو: الهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاةُ والسلام بالاتباع والاهتداء بِهَدْيِه عليه الصلاة والسلام، وأن يُحَكِّمَهُ في كلِّ الأمور، وأن يُعوِّل علىٰ هَديِه وسُنَّته ﷺ في جميعِ الأعمال.

فأوردَ هذه الآية الكريمة قول الله ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، ففيها أنه عليهِ الصلاة والسلام أولىٰ بكل مؤمنٍ ومؤمنةٍ من نفسِه، وهذا كما سيأتي في بيانِ ابن القيم ﵀ يتضمَّن معاني عظيمة تستفاد من قوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

من هذه المعاني المستفادة من هذه الآية: أنَّ الواجب أن تكون محبةُ النبيّ ﷺ مقدمةً علىٰ محبّةِ النفس والوالد والولد والناسِ أجمعين، ولا يتمُّ الإيمان إلَّا بذلك، كما جاءتِ السنة مُصرِّحة بهذا، قال عليه الصلاة والسّلام: «**والذي نفسي بيده لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ أكونَ أحبّ إليه من والده وولده والناس أجمعين**» [صحيح البخاري ومسلم]، في حديث عمر في «صحيح البخاري»: قال: قلت: يا رسول الله؛ [والله] لأنت أحبُّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي! فقال عليه الصلاةُ والسلام: «**لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحبّ إليك من نفسك**» [واللفظ الذي قاله: «لا يؤمِنُ أحدُكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من نفسِه»] قال عمر: والله لأنت الآن أحب إليّ [حتىٰ] من نفسي، قال: «**الآن يا عمر**» [صحيح البخاري]، أي: الآن يتحقق الإيمان.

فهذا المعنىٰ الذي هو تقديم محبة النبي عليه الصلاة والسلام علىٰ محبة النفس والوالد والولد والناس

أجمعين، وهو مُصَرَّحٌ به في السّنة كما قدَّمت، مُستفادٌ من هذه الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾، فإذا كان أولىٰ بكلِّ مؤمنٍ ومؤمنة من نفسه، فوجب أن تكون محبته مُقدمةً علىٰ محبة النفس.

ثم هذه المحبة التي تكونُ مقدمةً علىٰ محبة النفس ليس بمجرد الادعاء، لأنه من السهل علىٰ كل إنسان واليسيرِ علىٰ كل لسان أن يقول: إني أحبُّ الرسول عليه الصلاة والسلام محبةً مقدمة علىٰ محبتي لنفسي، كلمةٌ هينة، هينٌ قولُها، أو يسيرٌ قولُها علىٰ اللسان، فالعبرة ليست بمجرد القول أو مجرد الدعوىٰ، بل لابد أن يظهر برهانُ ذلك.

ولهذا يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة، والرضىٰ والتسليم وسائر لوازم المحبة)، وشاهدُ ذلك قول الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران] فكانت هذه الآية محنةً وامتحانًا في هذا الباب، يُمتحنُ أو يَمتحنُ المرءُ نفسه في ضوئها، ولهذا قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: هذه الآية حاكمةٌ علىٰ كل من ادّعىٰ محبةَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ دعواه كاذبة، ما لم يلزَم النهج النبوي والطريقة المحمدية طريقةَ محمد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ونَقل عن بعض أهلِ العلم أنه قال: ليس الشأن أن تُحِب، ولكن الشأنَ أن تُحَب. أي: أن يُحبك الله، والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لن يحبك بمجرد الدعوىٰ، بل لا بد من إقامة البُرهان علىٰ صدقِ هذه المحبة، بِالاتباع والاهتداء بهدي النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ومنها ألا يكونَ للعبدِ حُكمٌ علىٰ نفسهِ أصلا؛ بل الحِكمُ علىٰ نفسه للرسول، يحكمُ عليها أعظم من حُكم السيد علىٰ عبده، والوالد علىٰ ولده، فليس له في نفسه تصرُّفٌ قط إلا ما تصرف فيه الرَّسول ﷺ الذي هو أولىٰ به منها.

نعم، هذا أيضًا من المعاني المستفادة من الآية، ألَّا يكون للعبد حكمٌ علىٰ نفسه أصلًا، وإنما الحكم للرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه أولىٰ بنفس المرء من نفسه، ولهذا أيضًا فإنّ من المعاني المستفادة من هذه الآية أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أنصحُ لِنَفسِكَ منك، وأحرصَ علىٰ نَفسِكَ منك، كما قال الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

فمن دلائل هذه الأولوية التي ذكر الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية: أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أنصحُ لنفسك منك، وأحرص علىٰ نفسك ونجاتك من حرصك علىٰ نفسك وطلبك لنجاتها، فهو أولىٰ بنفسك منك، ومن ذلكم أنه أحرص عليك منك، وأنصح لنفسك منك.

وإذا أردت شاهد ذلك فإنك تراه بيّنًا، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يدعوك إلا إلىٰ الجنة والمنازل العالية

فيها، وانظر النفس إلىٰ أي شيء تدعو! إن لم يُجاهدها صاحبُها ويَزُمَّها بزَمام السنة وهدي النبي ﷺ، فهو أحرص علىٰ نفسِك منك، وأنصح لنفسك منك، ولهذا يتعيَّن كما ذكر ابن القيم: (ألا يكونَ للعبد حكم علىٰ نفسه أصلًا، وإنما الحكم للرسول) عليه الصلاة والسلام، وإذا جاء حُكمه عليه الصلاة والسلام لا يُلتفت إلىٰ ما تريده النفس، وما تطلبه لا يُلتفت إلىٰ هذا، وإنما الحكم له ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب].

فيا عجبًا كيف تحصل هذه الأولويةُ لعبدٍ قد عَزَلَ ما جاء به الرسول عن منصب التحكيم، ورَضِيَ بحكم غيره، واطمأنَّ إليه أعظَم من طمأنينته إلىٰ الرسول ﷺ، وزعم أنَّ الهُدىٰ لا يُتَلَقّىٰ من مشكاته، وإنما يُتلقىٰ من دلالات العقول، وأن ما جاء به لا يفيد اليقين... إلىٰ غير ذلك من الأقوال التي تتضمَّن الإعراضَ عنه وعما جاء به، والحوالةَ في العلم النافع علىٰ غيره، وذلك هو الضلال المبين.

يَتَعَجَّبُ - وحُقَّ لَه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ - من أُناسٍ وأقوامٍ عزلوا ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام عن منصب التَّحكيم، لم يجعلوا الحُكم لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنَّما جعلوا الحكم لأشياء أخرىٰ، وهذا يتَّضح بِتَأَمُّل المرء في الطوائف والفِرق، ما الذي جعلته حَكَمًا في عقائدها ومذاهبها؟ فإنّ المتأمل يجد أنّ الذي اتُّخِذَ حَكما في العقائدِ والمذاهب أشياء كثيرة:

منهم من جعل الحَكم العقل.

ومنهم من جعل الحكم الآراء.

ومنهم من جعل الحكم الأذواق والمواجيد ونحو ذلك.

ومنهم من جعل الحَكم القَصص وأشياء من هذا القبيل.

وهذا يظهر في طريقتهم في الاستدلال، إذا أراد الواحد أن يستدل علىٰ حكمٍ ما، لا يقول قال الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنما يستدل بالعقل المجرد، أو بالآراء المجردة، أو بالحكايات والقصص والمنامات... وأشياء من هذا القبيل، حتىٰ إنّ بعضَ هؤلاء من شِدّة تَعَصّبِه لهذه الأشياء التي جعلها هي الحكم، وهي التي يُستدلُّ بها، إذا ذُكر له الدليل من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقبله، وقدّم تلك عليه، فأين هذه الأولوية؟ أين هذه الأولوية التي دلت عليها الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ عليه الصلاة والسلام ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أينها؟ إذا كان عَزَلَهُ عن أن يكون عليه الصلاة والسلام هو الحَكم؟ وهذا فيه تأكيد المعنىٰ السابق وهو قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (ألا يكون للعبد حكمٌ علىٰ نفسه أصلا، الحكم للرسول) صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولا سبيلَ إلىٰ ثبوت هذه الأولويةِ إلاّ بِعَزْلِ كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعَرْضِ ما قاله كل أحد سواه علىٰ ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قَبِلَهُ، وإن شهد له بالبطلان ردَّه، وإن لم تتبين شهادتُه له بصحةٍ ولا بطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، وَوَقَفَه حتىٰ يتبيَّن أي الأمرين أولىٰ به. فمن سلكَ هذه الطريقةَ استقام له سفر الهجرة، واستقام له عِلمُه وعملُه، وأقبلت وجوهُ الحقِّ إليه من كل جهة.

من حَكَّمَ السّنة، وجعل لها الحُكم نطق بالحكمة، (وأقبلت) عليه مثل ما قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (وجوه الحق من كل جهة)، لأنّه من حكَّم من أمّر السنة علىٰ نفسه نطق بالحكمة، مثلما قال: (أقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة)، ولا يستقيم أمرُ هذه الهجرة إلا بهذا، إلا بتحكيم السنة، ولا يتحقَّق هذا المعنىٰ الذي في الآية ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ إلّا بهذا، لا يتحقق إلا بهذا، أن يكونَ الحكَم هو الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، (لا سبيل إلىٰ ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه).

انظر شاهد ذلك في الحديث العظيم، حديث العِرباض بن سارية، قال فيه عليه الصلاة والسلام: «**إنه من يعش منكم فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا**» أقوال وآراء ومذاهب وعقائد إلىٰ غير ذلك، سيرىٰ اختلافا كثيرا، كيف ننجو؟ ما المخرج؟ أجاب دون أن يُسأل وهذا من كمال نُصحه عليه الصلاة والسلام، قال: «**فعليكُم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين [من بعدي، تمسكوا بها و]عَضُّوا عليها بالنواجد، وإياكم ومُحدثات الأمور، فإنّ [كلَّ مُحدثة بدعة و] كلَّ بدعة ضلالة**» [صحيح الترغيب، وما بين المعقوفتين صحيح من روايات أخرىٰ].

ومِن العجبِ أن يدَّعي حصولَ هذه الأولوية والمحبة التامة مَن كان سعيه واجتهاده ونَصَبُه في الاشتغال بأقوال غيره وتقريرها، والغضب والحمية لها، والرِّضىٰ بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قال الرسول عليها، فإن وافقها قَبِلَهُ، وإن خالفها التمس وجوه الحِيَل، وبالغ في ردِّه ليًّا وإعراضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

يعني من الناس مَن هذا شأنُهُ، كما وصف ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وإن كان يدّعي المحبة، ويدّعي هذه الأولوية للنبيِّ عليه الصلاة والسلام، لكنَّ واقعه العملي علىٰ خلاف ذلك، واقعه العَمَلي علىٰ خلاف ذلك، عزل حكم الرسول عليه الصلاة السلام، وأقبل علىٰ الآراء والأقوال، معظِّمًا لها، يغضب لها، وحَمِيتُه لها، وانتصاره لها، ورِضاه بها، ثم إذا جاء حديث الرسول عليه الصلاة والسلام عَرَضَهُ علىٰ تلك الأقوال، عَكَس الأمر، جعلها هي القاضية، وجعلها هي الحاكمة، عرض عليها قول الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن وافقها قَبِله، إذن الحديث لَمْ يُقبل عنده، ماذا!؟ ابتداءً! وإنَّما قُبل لمّا وافق الذي يعتقد، أو وافق الرأي الذي يراه، وإن لم يوافق ماذا يصنع؟ تمحَّل في ردِّه، وتكلّف في رده، مثل ما قال: (ردَّه ليًّا وإعراضًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ

أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾) أي: مُطَّلِعٌ عليكم، خبير بكم وبأعمالكم وأقوالكم، وستقفون بين يديه، ويحاسبكم علىٰ ذلك، فلا نجاة إلا بإجابة الرَّسول، واتباع الرسول.

فيوم القيامة يوجَّه إلىٰ الأولين والآخرين: ماذا أجبتم المُرسلين؟ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص]، وهذا كما مر معنا بالأمس، هذا سؤال عن الهجرة إلىٰ الرَّسول اتباعًا له، وقبله في السورة نفسها سورة القصص قال الله ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢﴾ [القصص].

❀❀◊❀❀

وقد اشتملت هذه الآيةُ علىٰ أسرارٍ عظيمة، نحن نُنبِّه علىٰ بعضها لشدة الحاجة إليها، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

لما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مسلك أهل الضلال في التعامل مع النصوص، وهو ردُّ النصوص ليًّا وإعراضًا، واستدل بهذه الآية: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ وقفَ وقفةً عظيمةً نافعة مع هذه الآية، يذكر شيئًا من أسرارها، وينبِّه علىٰ معاني عظيمة تشتدُّ الحاجة إلىٰ بيانها، فهذه الآية ليست دليلًا ثالثا، وإنما للمناسبة لما ذكر حالَ هؤلاء وقف هذه الوقفة مع هذه الآية، يذكرُ شيئا من أسرارِها ومعانيها التي تشتد الحاجة إلىٰ بَيانها.

❀❀◊❀❀

فأَمرَ سبحانهُ بالقيامِ بالقسط، وهو العدل، وهذا أمرٌ بالقيام به في حق كل أحدٍ عَدُوًّا كان أو وَلِيًّا، وأحقُّ ما قام له العبد بالقسطِ الأقوال والآراء والمذاهب، إذ هي متعلِّقة بأمر الله وخبره، فالقيام فيها بالهوىٰ والعصبيةِ مضادٌّ لأمر الله، منافٍ لما بَعَثَ به رُسُلَه، والقيام فيها بالقِسط وظيفةُ خلفاءِ الرسول في أُمَّته، وأُمنائِه بين أتباعه، ولا يستحقُّ اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض، نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله ولعباده ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠﴾ حقًّا، لا من يجعلُ أصحابُه ونِحْلَته ومذهبه عِيارًا علىٰ الحقِّ وميزانًا له، يعادي من خالفه، ويوالي من وافقَه، لمجرَّد موافقته ومخالفته، فأين هذا من القيام بالقِسط الذي فرضَه الله علىٰ كلِّ أحد؟ وهو في هذا الباب أعظم فرضا وأكبر وجوبًا.

الله جل وعلا أمر عباده في هذه الآية الكريمة أن يكونوا قوّامين بالقسط، والقسط هو العدل، والله يحبُّ المقسطين، يحبُّ أهل العدل والإنصاف في الأمور كلِّها، في التعامل مع الولي ومع العدو، الله ﷻ يحب القسط، يحبُّ العدل حتىٰ لو كان من يتعامل معه عدوًّا، أو بينه وبينه شنآن وبغضاء، مثل ما قال الله ﷻ في الآية الأخرىٰ في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا

تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٨]، فأمر ﷻ بالعدل حتىٰ لو كان بين المرء شنآن أو معاداة أو بغضاء، العدلُ به قامت السَّمٰوات والأرض، وأمر الله ﷻ به.

ثم نبَّه هنا علىٰ ما يتعلق بالسياق الذي يتحدث عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ (أحق ما قام له العبد بالقسط الأقوال والآراء والمذاهب)، يجب أن يكون المرء في هذه قائمًا بالقسط، قوَّامًا بالقسط، (إذ هي متعلقة بأمرِ الله وخَبرِه، فالقيامُ فيها بالهوىٰ والعصبيَّة مضاد لأمر الله)، أين العدل هنا؟ أين القِسط هنا؟ إذا كانت الحميَّة للآراء وللمذاهب والأقوال مع الصُّدود والإعراض عن هدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، أين العدل إذن؟ فهذا (مضاد لأمر الله، ومنافٍ لِما بعث به رسلَه)، والله عَزَّوَجَلَّ بعث الرسل ليطاعوا، فأين القسط إذا كان يقدّم علىٰ أقوالهم الآراء والأهواء والعقول والتخرصات والظنون!؟ الله يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤].

ثم أشاد رحمة الله عليه بأهل العلم، أهل البصيرة، أهل السنة، أهل الدراية بهدي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وأنّ هؤلاء هم (خلفاء الرسول) عليه الصلاة والسلام (في أمته، وأمناؤُه بين أتباعِه، ولا يستحق اسم الأمانة إلا من قام فيها بالعدل المحض، نصيحةً لله ولكتابه ولرسوله)، أولئك هم الوُرَّاث حقًّا، كما في الحديث: «**وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**» [صحيح الجامع]، أي: من ميراث الأنبياء.

ثم قال تعالىٰ: ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والشاهد هو المُخْبِر، فإن أخبر بحقٍّ فهو شاهدُ عدلٍ مقبول، وإن أخبر بباطل فهو شاهدُ زور، فأمر تعالىٰ أن نكون شهداء له مع القيام بالقسط، وهذا يتضمَّنُ أن تكونَ الشهادةُ بالقسطِ أيضًا، وأن تكون لله لا لغيره، وقال في الآية الأخرىٰ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة:٨]، فتضمَّنت الآيتان.

نعم هنا ننتبه، يعني الشيخ الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أوَّلًا الآية التي في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ والحديث عن هذه الآية، في سورة المائدة قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ إذا جَمَعْت الآيتين والمعاني المستفادة من الآيتين تتضمن أربعة أمور، يبينها رحمةُ الله عليه.

فتضمنت الآيتان أمورًا أربعة:

أحدها: القيام بالقسط.

والثاني: أن يكون لله.

والثالث: الشهادةُ بالقسط.

والرابعُ: أن تكون لله.

نعم هذه أمور أربعة مستفادة من الآيتين: القيام لله، و(لله) هذه فيها الإخلاص، مثل ما نبّه، أن يكون لله، أي مخلصا، وفي الآية الأخرىٰ ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه قيامٌ بالقسط، وفيه شهادة بالقسط، القيام بالقسط دلّت عليه الآية الأولىٰ آية النساء، والشهادة بالقسط دلت عليه الآية الثانية، وأن يكون ذلك كله لله ﷻ.

واختصّت آية النساء بالقيام بالقسط والشهادةِ لله، وآيةُ المائدة بالقيام لله والشهادة بالقسط، لسرٍّ عجيب من أسرار القرآن ليس هذا موضعَ ذكره، ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥] فأمرَ سبحانه بأن يُقام بالقسط ويُشهدَ به علىٰ كل أحد، ولو كان أحبَّ الناس إلىٰ العبد، فيقوم به علىٰ نفسه، ووالديه اللّذين هما أصله، وأقربيه الذين هم أخص به وألصق من سائر الناس، فإنّ ما في العبد من محبته لنفسه ولوالديه وأقربيه يمنعه من القيام عليهم بالحق، ولا سِيَما إذا كان الحق لمن يبغضُه ويعاديه قبلهم، فإنه لا يقوم به في هذه الحال إلا من كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه من كلِّ ما سواهما.

فإنه لا يقوم به في هذه الحال إلا من كان الله ورسوله أحبّ إليه من كل ما سواهما، وهذا يمتحن به العبد إيمانه، فيعرف منزلةَ الإيمان من قلبه ومحلّه منه.

صدق رَحِمَهُ اللَّهُ هذا موطن امتحان، موطن امتحان عصيب جدا، يعني إذا كان في موطن شهادة، ومن يبغضه ويعاديه له الحق، وقرابته الحق ليس لهم، فيكون الإنسان في امتحان شديد لا ينجح فيه إلا إذا حقّق الإيمان، وحقق ما يقتضيه الإيمان، وإلا في هذا الموطن يسقط الإنسان أمام هذا المحك، أمام هذا المحك في الامتحان، ولهذا لمّا أمر الله ﷻ بالشهادة بالعدل حتىٰ لو كانت علىٰ الوالدين والأقربين، فكيف بالأمر إذا كانت علىٰ غيرهما؟ إذا كانت علىٰ الوالدين والأقربين مطلوبة وأن يقوم بالقسط والعدل ويشهد بالحق.

وهذا يمتحن به العبد إيمانَه، فيعرف منزلةَ الايمان من قلبه ومحلَّه منه، وعكس هذا عدل العبد في أعدائه ومن يَشْنَؤُه، فإنه لا ينبغي له أن يحمله بغضه لهم علىٰ أن يجنَف عليهم، كما لا ينبغي أن يحمله حبه لنفسه ووالديه وأقاربه علىٰ أن يترك القيام عليهم بالقسط، فلا يدخله ذلك البغض في باطل، ولا يقصُر به هذا الحب عن الحق.

هذه خلاصة عظيمة: (لا يُدخله ذلك البُغض في باطل)، إذا كان يُبغض عدوه لا يظلمه، لا يحمله هذا

البغض على الظلم والباطل، وإذا كان يُحب قريبَه لا يحمله هذا الحب على أن يُقصِّر؛ بل الإنصاف مطلوب، والعدل مطلوب.

كما قال بعض السلف: العادل هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق.

نعم، هذا هو (العادل) المنصف، (الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق)، وأيضا موضوع الغضب، كثيرا ما يحرِفُ الانسان عن العدل، ويحصل منه في غضبه من الأمور والأقوال التي ليست من العدل في شيء، ولهذا جاء في الدعاء العظيم: «**أسألكَ كلمة الحق في الغضب والرضا**» [صححه الألباني في شرح الطحاوية]، كلمة الحق في الرضا قد تكون يسيرة، لكن في الغضب! [في] الغضب عزيزة، إلا من أعانهُ الله ﷻ، فـ(العادل) حقا (هو الذي إذا غضب لم يدخله غضبه في باطل، وإذا رضي لم يخرجه رضاه عن الحق).

فاشتملت الآيتان على هذين الحُكْمين، وهما القيام بالقسطِ والشهادة به على الأولياء والأعداء، ثم قال تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء:١٣٥] أي: ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿غَنِيًّا﴾ ترجون وتأملون عود منفعة غناه عليكم فلا تقومون عليه، ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾ فلا ترجونه ولا تخافونه ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم، هو ربهما ومولاهما، وهما عبداه كما أنكم عبيده، فلا تُحابوا غنيا لغناه، ولا تطمعوا في فقير لفقره، فإنّ الله أولىٰ بهما منكم.

هذا معنىٰ ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لقوله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾، ﴿إِن يَكُنْ﴾ أي: (المشهود عليه)، ﴿غَنِيًّا﴾ فترجونه، (وتُؤمِّلون عود منفعة غناه عليكم، ﴿أَوْ﴾) كان (﴿فَقِيرًا﴾ فلا ترجونه ولا تخافونه) ولا تُؤمِّلون شيئا، ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي منكم، هذا معنىٰ، وثمة معنىٰ آخر قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد يقال فيه معنىٰ آخر أحسنُ من هذا، وهو أنهم ربما خافوا من القيام بالقسط وأداء الشهادة علىٰ الغني والفقير، أما الغني فخوفًا علىٰ ماله، وأما الفقير فلإعدامه، وأنه لا شيء له، فتتساهل النفوس في القيام عليه بالحق، فقيل لهم: الله أولىٰ بالغني والفقير منكم، أعلم بهذا وأرحم بهذا، فلا تتركوا أداء الحق والشهادة علىٰ غني ولا فقير.

يعني قد تُترك الشهادة علىٰ (الغني خوفا علىٰ ماله)، أن يضيع مثلا بهذه الشهادة، أو يذهب عنه بهذه

الشهادة، وقد تُترك الشهادة خوفًا على (الفقير لإعدامه) وفقره، فالله ﷻ قال: لا تتركوا أداء الحقِّ والشهادة على الغني والفقير ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ لا يجعلكم حرصكم عليهم تحيفون في الشهادة ﴿فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ [النساء:١٣٥] نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل، وقوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ منصوبُ الموضع على أنه مفعول لأجله، وتقديره عند البصريين: كراهية أن تعدلوا، أو حِذار أن تعدلوا، فيكون اتِّباعكم الهوى كراهية العدل وفرارا منه، وعلى قول الكوفيين: التقدير ألا تعدلوا، وقول البصريين أحسن وأظهر.

وهذا معنى قوله في هذا السياق (﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْ﴾ نهاهم عن اتباع الهوى الحامل على ترك العدل)، ومعنى قوله: ﴿أَن تَعۡدِلُواْ﴾ أي: كراهية أن تعدلوا، واتباع الهوى يفضي إلى هذا، فنهاهم الله ﷻ عن اتباع الهوى، لأنّ اتباع الهوى يحمل صاحبه على ترك العدل.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء].

هذا الموضع الذي لأجله ساق الآية بتمامها، وأخذ يذكر المعاني واللطائف حولها، فقوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ﴾ فما اللّي؟ وما الإعراض؟

ذكر سبحانه السببين الموجِبين لكتمان الحق محذرا منهما، متوعدا عليهما، أحدهُما: اللّي، والآخر: الإعراض. فإنّ الحق إذا ظهرت حجته ولم يجد من يرومُ دفعَها طريقًا إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطانا أخرس، وتارة يلويها أو يحرفها.

يعني هاتان طريقتان لمتبع الهوى إذا جاء الحق مخالفا لما هو عليه، كيف يتعامل مع الحق؟ إما أن يُعرض عن الحق، أو يلوي الحق على غير معناه، فيحرفه، يلويه ويَحْرِفه على غير معناه، فيحمله على غير معناه، وعلى غير محمله، فإما أن يقابله بالإعراض أو يقابله باللّيْ، ليَّه أي حرفه عن مدلوله، وعن مقصوده، وكلٌّ من الأمرين موجود عند أرباب الباطل وأصحاب الأهواء.

واللّيُّ مثل الفَتْل، وهو التَّحريف، وهو نوعان: لَيٌّ في اللفظ، ولَيٌّ في المعنى. فاللّيُّ في اللّفظ: أن يلفظ بها على وجهٍ لا يستلزم الحقّ، إما بزيادة لفظةٍ، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها، أو لَيًّا في كيفية أدائها، وإيهام السامع لفظًا ومراده غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسَّلام على رسول الله ﷺ، فهذا أحد نوعي اللّيْ.

يعني اللّيّ هو التحريف، وحملَ الكلام على غير محمله، وهذا من طرائق أهل الباطل، وهو متلقى من

اليهود ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء:٤٦]، هو مُتلقّىٰ عنهم، وهي طريقتُهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لتتبِعُن سَنَنَ من كان قبلَكم شبرا شبرا، وذراعا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ [تبعتموهم]**» قيل: اليهود والنصارىٰ؟ قال: «**فمن؟**» [صحيح البخاري ومسلم].

فاللّيّ للنّص هو تحريفُه وحمله علىٰ غير معناه، والتَّحريف مثل ما ذكر ابن القيم: لفظي ومعنوي، وتجدون في هذا بحثًا موسعًا لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتابه «الصواعق»، في مختصره «مختصر الصواعق»، تكلم وذكر أمثلة توضح التحريف بأنواعه: اللفظي بنوعيه، والمعنوي بنوعيه، وذكر الأمثلة علىٰ ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ.

والنوع الثاني منه: لَيُّ المعنىٰ، وهو تحريفه وتأويل اللفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم به، وتَحْمالُه ما لم يُرِده.

(تحماله) أي: يُحمّله، يُحمّل النص (ما لم يرده)، هذا التحريف أو الليّ المعنوي، أو التحريف المعنوي: تأويل اللَّفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم، التحريف المعنوي: أن يُعطَىٰ اللفظ معنىٰ لفظٍ آخر، التحريف اللفظي: أن يغير في اللفظ، بزيادة حرفٍ أو كلمة، أو بحركةٍ إعرابية أو غير إعرابية، هذا كله بينه ابن القيم في الكتاب الذي أشرت إليه، والتحريف المعنوي: أن يُعطي اللفظ معنىٰ لفظٍ آخر، فيُخرِج اللفظ عن دلالته أصالةً بإعطائه معنىٰ لفظ آخر، وهذه طريقة أهل البدع، إذا جيء لهم بنص مثبت لحق هم لا يثبتونه، يَحمِل النص علىٰ معنىٰ آخر، يقول: المراد بهذه الآية أو بهذا الحديث كيت وكيت، يُعطيه معنىٰ آخر بعيد ليس مرادا، هذا هو اللّيّ، وهو التحريف.

والنوع الثاني منه: ليُّ المعنىٰ وهو تحريفه وتأويل اللفظ علىٰ خلاف مراد المتكلم به، وتَحْمالُه ما لم يرده، أو يسقط منه بعض ما أراد به، ونحو هذا من ليّ المعاني، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾ [النساء].

ولمّا كان الشاهد مُطالَبًا بأداء الشهادة علىٰ وجهها، فلا يكتمها ولا يغيرها، كان الإعراض نظير الكتمان، واللّيّ نظير تغييرها وتبديلها، فتأمل ما تحت هذه الآية من كنوز العلم.

والمقصود أن الواجب الذي لا يتمُّ الإيمان؛ بل لا يحصُلُ مسمَّىٰ الإيمان إلا به: مقابلةُ النصوص بالتلقِّي والقبول، والإظهار لها، ودعوة الخلق إليها، لا تُقابل بالإعراض تارة، وباللَّيِّ أخرىٰ.

يعني خلاصة الكلام: (أنّ الواجب الذي لا يتم الإيمان، بل لا يحصل مسمىٰ الإيمان إلا به: مقابلة النصوص بالتلقي والقَبول)، مثلما قال الإمام الزُّهري محمد بن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، قال: من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. هذا واجبنا، واجبنا أمة النبي عليه الصلاة والسلام أن نسلِّم، وأن نُذعن،

وأن ننقاد لما جاء عنه صلوات الله وسلامه عليه، هذا هو الواجب.

والإظهار لها ودعوة الخلق إليها، لا أن تُقابل بالإعراض تارة، وباللّيّ أخرىٰ، فهذا المسلك ليس مسلك من حقّق صِدق المحبة والإيمان بأولوية النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، التي دل عليها قول الله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾.

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ دليلا آخر علىٰ مقصود هذا الفصل، وهو الدليل الثالث قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب:٣٦] وعرفنا طريقته، يذكر الدليل ثم يعلق عليه بما يفتح الله عليه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

نسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم بأسمائه الحُسنىٰ وصفاته العُليا أن ينفعَنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا عِلمًا وتوفيقا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللّٰهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا ووالديهم وذرياتهم وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللّٰهُمَّ أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللّٰهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا، سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

٩ / ٤ / ١٤٤٠

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فدلَّ هذا علىٰ أنه إذا ثبت لله ولرسوله ﷺ في كلِّ مسألةٍ من المسائل حُكْمٌ طلبيٌّ أو خبري، فإنّه ليس لأحدٍ أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأنّ ذلك ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أصلًا، فدلَّ علىٰ أنّ ذلك منافٍ للإيمان.

وقد حكىٰ الشافعيُّ رضي الله عنه إجماع الصحابةِ والتابعين ومَن بعدَهم، علىٰ أنَّ من استبانت له سنَّةُ رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَعها لقول أحد.

ولا يستريبُ أحدٌ من أئمةِ الإسلام في صحَّةِ ما قال الشافعيُّ رضي الله عنه، فإنّ الحجة الواجب اتباعها علىٰ الخلق كافةً إنما هو قول المعصومِ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وأمّا أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغةَ الاتباع لا واجبةَ الاتِّباع، فضلًا عن أن تُعارَض بها النُّصوص وتُقدَّم عليها، عياذًا بالله من الخذلان.

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فلا يزال الإمامُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ يذكر في هذا الفصل المتعلق بالهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، تأسِّيًا واتباعًا واقتداءً، لا يزالُ يذكر رحمه الله الأدلة من القرآن علىٰ هذه الهجرة، التي هي اتِّباعُ الرسول عليه الصلاة والسلام، ولزومُ منهجِه القويم ﷺ.

وهذا الدَّليل الثالث من هذه الأدلَّة، قول الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ وهذه الآية واضحة في بيان المقصود هنا، الذي هو طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، والتقيّد بما جاء عنه، وألا يكون المرء في هذا الباب انتقائيًّا، يأخذ منها ما أراد ويترك ما لم يُرد؛ بل الواجب عليه أن يُسلِّم تسليمًا، وأن ينقادَ انقيادًا تامًّا لكل ما جاء عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ليس لهم في هذا الذي جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام خِيَرَة، أن يتخيَّر المرءُ لنفسه بأن يأخذ مثلًا بعضًا ويترك بعضًا، يقبل بعضًا ويردّ بعضًا، ليس له ذلك؛ بل الواجب أن يُتلقَّىٰ كلُّ ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام بالقَبول والتسليم.

وهذا كما أشار أيضًا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: في الأمور الطّلبية والأمور الخَبرية، في الحكم الطلبي والحكم الخبري.

الحكم الطلبي: الذي هو الأوامر والنواهي والشرائع والتكاليف.

والأمور الخبرية: العقائد، وكل ما جاء عن النبي ﷺ من أخبار.

فإنّ كلَّ ذلك يؤمَن به بلا تردد، وكل ما جاء عنه من أوامر يُعمل بها، ونواهي تُجتَنب، هذا حال المسلم مع ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا مقتضىٰ شهادة ألا إله إلا الله، طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهىٰ عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

قال: (في كل مسألةٍ من المسائل حكمٌ طلبي أو خبري)، سواءٌ كان الحكم حكمًا طلبيًّا أو كان الحكمُ حكمًا خبريًّا، (فإنه ليس لأحدٍ أن يتخيَّر لنفسه) في (ذلك الحكم، فيذهب إليه)، وإنَّما الواجب أن يُتلقَّىٰ كل ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام بالقَبول، فالأخبار تُتَلقَّىٰ بالتَّصديق، والأوامر تتلقىٰ بالامتثال والانقياد لِما جاء عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (فدل علىٰ أن ذلك منافٍ للإيمان)، لأنه قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ فإذا لم يمتثل هذا المضمون الذي دلّت عليه هذه الآية فإنّ هذا منافٍ للإيمان.

ثم نقل هذا النقل العظيم عنِ الإمام الشافعي رحمةُ الله عليه، قال أنه حكىٰ (إجماع الصحابة والتابعين ومَن بعدهم علىٰ: أنّ مَن استبانت له سُنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقولِ أحد)، وهذا الإمام ينبغي أن يُعرف بإمامته وفضله، وعلوِّ مكانته ورفعة شأنه نُصرةً للدِّين، وإحياءً لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو من الأئمة الفحول الكبار المجتهدين، وله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كتابات عظيمة في الأصول المتعلِّقة بالاجتهاد وضبط هذا الأمر ضبطًا قويمًا، حتىٰ لا يتسنّم هذا الأمر من ليس أهلا له، وإنما هذا الأمر له رجاله، ولهذا في زماننا هذا يكثر عند أصحاب الأفكار والآراء التطاول علىٰ هذا الإمام بالذات رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وعلىٰ مقامه العلي الرفيع، لماذا؟ لأن الأصول التي أصّلها في ضبط الاجتهاد الضَّبط القويم، واعتنىٰ بها عناية دقيقة تقطع الطريق علىٰ هؤلاء، في اجتهادهم المُنفلت الضائع، الذي مبني في كثيرٍ منه علىٰ تحقيق الأهواء، والرَّغبات، والمطامع، والتفلُّت من النصوص.

ولهذا يقول القائل من هؤلاء: هو مجتهد، وخالفَ بعض الأئمَّة قبله، ونحن نجتهد مثل ما اجتهد! فهذا الإمام – أعني الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ – ينبغي أن تُدرك إمامتُه ومكانتُه ومنزلتُه العليَّة الرفيعة، وأن يُعرف فضله والجهد العظيم الذي بذله في التأصيل والتَّقعيد في ضبط الأمور.

ومن هذا هذه الكلمة العظيمة: ليس لأحدٍ استبانت له سنة النبي ﷺ، ليس له أن يدعها لقول أحدٍ كائنا من كان، وعنه نقولات عظيمة في هذا المعنىٰ تجدونها في آخر كتاب «معارج القَبول» للشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، نقل نُقولًا كثيرة عن هذا الإمام خاصة؛ الشَّافعي، ويوجد عن غيره من الأئمة نقولات، لكن هذا الإمام علىٰ وجه الخصوص له تميُّز عظيم جدًّا في التأصيلات والقواعد التي أصّلها وقرَّرها وبيّنها رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ، وهي كما قلت تقطع الطَّريق علىٰ أهل الاجتهاد المنفلت الضائع، المبني في كثيرٍ منه علىٰ الأهواء والمُيولات والرَّغبات وما إلىٰ ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مؤكدًا ما قاله هذا الإمام: (ولا يستريبُ أحدٌ من أئمةِ الاسلام في صحَّةِ ما قال الشافعي) رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ؛ لأنَّ الحق أحق أن يُتبع، والسُّنة إذا استبانت وظهَرت ليس للمرء أن يتكلّف ردَّها لا لشيءٍ إلا لهوىٰ والعياذ بالله في نفسه، أو ميول أو شيءٍ نشأ عليه، فيبدأ يتكلَّف في رد النَّص الواضح، ويتكلف في دفعه ليًّا وإعراضًا، مثل ما تقدم في كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، ليس لأحد أن يكون كذلك؛ بل الواجب أن يُسَلِّم، والإمام الشافعي له كلمة عظيمة في هذا يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

ولهذا بعض المسائل التي اجتهد فيها، وقرر فيها حُكما رَحِمَهُ اللهُ، جاء بعض أتباعه فيما بعد وقرروا فيها قولًا غير الذي قرره الشافعي، ثم يقولون: وهذا هو مذهب الشافعي، أخذًا من قوله: إذا صح الحديث، قالوا: وقد صح الحديث وهو مذهب الشافعي.

فانظر هذه المتانة في العلم، وهذا الارتباط الوثيق بسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، حتىٰ القول الذي يصل إليه بالاجتهاد والتحرّي والتدقيق، قد يكون بلَغَه الحديث في هذا الباب من طريق ضعيف، فلم يأخذ به، فيقول: إن صح الحديث فهو مذهبي، وهذا من التعظيم لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، بخلاف من تصحّ الأحاديث وتستبين دلالتها ثم يتكلف ردَّها.

والعجيب في الأمر أن يُسمّىٰ مثل هذا التكلُّف في رد الأحاديث اجتهاد، ويقولون: هم رجال ونحن رجال، نجتهد مثل ما اجتهدوا، أولئك اجتهدوا في تعظيم السنة وتحرِّي الحق، والدعوة للاتباع، وهؤلاء يجتهدون في تكلُّف رد الحق الثابت عن الرسول ﷺ، فشتَّان بين الطريقين، وبونٌ شاسعٍ بين المسلكين.

قال: (فإن الحجة الواجب اتباعها علىٰ الخلق كافة إنما هو قول المعصوم) ﷺ (الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع، فضلًا عن أن تعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذًا بالله من الخذلان).

❀❀◇❀❀

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ

وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور]، فأخبر سبحانه أنّ الهداية إنّما هي في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنّه معلقٌ بالشرط، فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثيرٌ من الناس، ويظن أنّه يحتاج في تقرير الدَّلالةِ منه إلىٰ تقرير كون المفهوم حُجّة؛ بل هذا من الأحكام التي رُتِّبَت علىٰ شروط وَعُلِّقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما عُلِّق علىٰ الشرط فهو عدمٌ عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له، إذا ثبت هذا فالآيةُ نصٌّ علىٰ انتفاء الهداية عند عدمِ طاعته.

هذا الدليل الرابع قول الله ﷻ في سورة النور ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ قال ابن القيم: (فأخبر سبحانه أنَّ الهداية إنَّما هي في طاعة الرسول لا في غيرها)، انتبه لقوله: (لا في غيرها)، فإنّ الحديث الآتي عن هذه الكلمة، (الهداية إنما هي في طاعة الرسول، لا في غيرها)، أخذًا من قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ﴾ فـ ﴿إِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ﴾ هذا فيه أنَّ الهداية إنما هي حَصرًا في طاعته، إنما هي حصرًا في طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، (فإنه مُعلّق بالشرط، فينتفي بانتفائه)، عُلِّقَ الاهتداء بشرطِ الطاعة، فإن انتفت انتفىٰ، إن انتفت الطاعة انتفىٰ الاهتداء؛ لأن الاهتداء معلق بها، (فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه)، (وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس)، لأنّ الألفاظ لها دلالتان كما هو معلوم: دلالة منطوق ودلالة مفهوم، دلالة المنطوق: هي المعنىٰ المستفاد من اللفظ من حيث النطق به، ودلالة المفهوم: المعنىٰ المستفاد من اللفظ من حيث السكوت اللازم للّفظ.

فيقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس هذا من باب دلالة المفهوم)، لأنّ مثل ما عرفنا الدلالة: دلالة منطوق ودلالة مفهوم، فما دل عليه اللفظ منطوقًا من حيث النطق به هذا يقال عنه دلالة منطوق، وإذا كان يُفهم من اللفظ يُسمىٰ دلالة مفهوم، يعني مثلا لو قيل: إن تُذاكر تنجح، هذا فيه منطوقا: أنّ النجاح مرتبط بالمذاكرة – هالأيام اختبارات! – منطوقًا: أنّ النجاح بالمذاكرة، إن تذاكر تنجح، لو قال قائل: هذا يدل أيضًا علىٰ أن الذي لا يذاكر لا ينجح، صحيحة ولا غير صحيحة؟ صحيحة، منطوقا أو مفهومًا؟ كل أحد يفهم هذا؟ هذه تسمىٰ دلالة مفهوم، وهي دلالة صحيحة معتبرة، ولهذا كثير من الأحكام تؤخذ من دلالة المفهوم، الآن لما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، عندما يقول قائل: هذه الآية تدل علىٰ عدم جواز ضرب الوالدين، أو لعن الوالدين والعياذ بالله، أو نحو ذلك، الدلالة صحيحة أو لا؟ من باب أولىٰ، إذا كان لا يُقال: أف، فهذه أشد من أف! فهي من باب أولىٰ وأحرىٰ.

فدلالة المفهوم دلالة صحيحة، لكن ابن القيم هنا ينبه علىٰ لطيفة عظيمة جدا، يقول: إن قوله في الآية

(﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ أنّ الهداية إنما هي في طاعة الرسول لا في غيره)، لماذا؟ لأنه (معلق بالشرط)، هو الآن يتحدث عن قول: (لا في غيره)، لأن الآن إذا قلنا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ فيها منطوقا أنّ من أطاع الرسول ماذا؟ اهتدىٰ، لكن هل من أطاع غير الرسول لا يهتدي؟ يقول ابن القيم: نَصَّ الآية في ذلك، الآية تعد نصًّا في ذلك، ليس مفهومًا، نصًّا في ذلك، لأنه علّقَ الهداية بشرط الطاعة، فإن لم توجد الطاعة انتفت الهداية، فلن تُحَصّل في طاعةِ غيره صلواتُ الله وسلامه عليه.

ولهذا من كان بعيدا عن الاستجابة والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام فهو بعيد عن الهداية ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ انتبه للآية ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الأمر ارتبط بعدم الاستجابة، فإذا لم تكن استجابة للرسول، فالمرء مُتَّبِع لهواه، ومن كان متبعا لهواه فهو ماذا؟ ضال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

قال: (وليس هذا من باب دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه يحتاج في تقرير الدلالة منه إلىٰ تقرير كون المفهوم حُجة؛ بل هذا من الأحكام التي رُتِّبت علىٰ شروط وعُلِّقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما عُلِّق علىٰ الشرط فهو عدمٌ عند عدمه، وإلا لم يكن شرطا له).

وفي إعادة الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤] دون الاكتفاء بالفعل الأول سرٌّ لطيف وفائدةٌ جليلة، سنذكرها عن قربٍ إن شاء الله تعالىٰ.

دون الاكتفاء بالفعل الأول، يعني لم يقل: (قل أطيعوا الله والرسول) اكتفاء بالفعل الأول ﴿أَطِيعُواْ﴾ بل أعاد الفعل عند ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يقول: هذا له (سر لطيف وفائدة جليلة) سيأتي ذكرها قريبًا عنده رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الفعل للمخاطَبين، وأصله تتولَّوا، فحُذفت إحدىٰ التاءين تخفيفا، والمعنىٰ: أنه قد حُمِّل أداء الرسالة وتبليغها، وحُمِّلتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» عن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: مِن الله البيان، وعلىٰ رسوله البلاغ، وعلينا التسليم.

نعم، ما أجمل نقل كلام الزهري محمد بن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموطن، الله جل وعلا يقول لعموم المخاطبين ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ كلٌّ مسؤول عن الشيء الذي حُمِّل، حُمِّلَ الرسول عليه الصلاة والسلام البلاغ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤] بلَّغَ البلاغ المُبين، ما ترك خيرًا إلا دلَّ الأمةَ عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرها منه، بلَّغ ونصح وأدىٰ الأمانة عليه الصلاة والسلام وافية.

﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ حملتم الاتباع، والاقتداء والاهتداء بهديه عليه الصلاة والسلام، قال الزهري: (من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)، (علىٰ الرسول البلاغ) هذا الذي حُمل، وأداه وافيا عليه الصلاة والسلام، ولم يمت حتىٰ أنزل الله في ذلك تنصيصا وتبيينًا ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، (وعلينا التسليم): حُملنا هذا، أن نسلّم وننقاد، ونمتثل أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام.

فإن تركتم أنتم ما حُمِّلْتُموه من الإيمان والطاعةِ، فعليكم لا عليه، فإنه لم يُحمّل طاعتكم وإيمانكم، وإنما حُمل تبليغكم وأداء الرسالة إليكم، فإن تطيعوه فهو حظُّكم وسعادتُكم وهدايتكم، وإن لم تطيعوه فقد أدىٰ ما حُمِّل ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ ليس عليه هداكم وتوفيقكم.

(إن تركتم أنتم ما حُمِّلتم من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه)، لأنّ الذي عليه أدّاه، حُمِّل البلاغ، وقد بَلّغ، «**لا أُلفِيَنَّ**» في «صحيح البخاري»، لما ذكر الغلول وعظّم أمره قال: «**لا ألْفَينَّ أحدكم يوم القيامة [يأتي و]علىٰ رقبته شاةٌ لها ثُغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك**» إلىٰ آخر الحديث [صحيح البخاري ومسلم]، ذكر أشياء وفي كلٍ يقول «**قد أبلغتك**» فالذي عليه أدّاه، بلّغ عليه الصلاة والسلام البلاغ، الذي حُمِّل أدّاه.

﴿وَعَلَيۡكُم﴾ أي: معاشر المخاطبين ﴿مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ وهو الاتباع، أنتم مسؤولون عن ذلك ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء:٦٤]، حُملتم الطاعة والاتباع لهذا الرسول عليه الصلاة والسلام، (فإنه لم يُحمَّل طاعتكم وإيمانكم) ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل:٣٧]، هذا بيدِ الله ﷻ، حُمّل البيان والبلاغ وقد أدىٰ ذلك، (حُمّل تبليغَكم وأداء الرسالة إليكم، فإن تُطيعوه فهو حظكم وسعادتكم وهدايتكم، وإن لم تطيعوه فقد أدىٰ ما حُمل) صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء]، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآيةَ بندائهم باسم الإيمان المُشعرِ بأنّ المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا وخوطبوا به، كما يُقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله؛ أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علِّم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائرُه، ولهذا كثيرا ما يقعُ الخطاب في القرآن بالشرائع

بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة:١].

ونظائرُه، ففي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

هذه الآية الخامسة من الآيات التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل، وهي قول الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بندائِهم باسم الإيمان، المُشعر بأنّ المطلوبَ منهم من موجبات الإيمان الذي نودوا وخوطِبوا به)، فهذه النداءات – وهي كثيرة في القرآن – المُفتَتَحة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم يُذكر أمر من الأوامر أو نهي من النواهي، تصديرُ الآية بهذا النداء بهذا الوصف الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُتَضَمِّنٌ أنّ هذا الذي تُنادَون للقيام به من مقتضيات إيمانكم، مثل الأمثلة التي ذَكَر: (يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن)، يا من علّمه الله العلم ورزقه العلم علِّم، يعني هذا مقتضىٰ العلم الذي عُلمتَه، ومن مقتضىٰ الخير الذي رُزقته، فكذلك النداءات التي في القرآن المُصدرة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا يتضمن أنَّ هذا الذي تُنادىٰ أيها العبد للقيام به فعلا أو تركا، هو من مقتضياتِ الإيمان، قال: (ففي ذلك إشارة إلىٰ أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه)، فهذه الآية فيها أنَّ من مُقتضيات الإيمان أن تطيعوا الله، أن تطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ففرّقَ بين طاعته وطاعة رسوله في الفعل، ولم يسلط الفعلَ الأولَ عليها، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، فقرنَ بين طاعةِ الرسول ﷺ وطاعةِ أولي الأمر، وسلط عليهما عاملًا واحدا، وقد كان ربما يسبق إلىٰ الوهم أنّ الأمر يقتضي عكس هذا، فإنّ من يطع الرسولَ فقد أطاع الله، ولكنَّ الواقع في الآية هو المناسب، وتحتَه سرٌّ لطيف، وهو دلالتُه علىٰ أنّ ما يأمرُ به رسوله تجبُ طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن، فتجبُ طاعة الرسولِ مفردةً ومقرونة، فلا يتوهم متوهمٌ أنّ ما يأمرُ به الرسولُ إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه، كما قال النبي ﷺ: «**يوشك رجلٌ شبعانُ متكئ علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**».

نعم قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هنا مثل ما ذكر ﷻ تعالىٰ، كرر الفعل ولم يكتفِ بالفعل الأول، لم يقل (أطيعوا الله والرسول) وإنما كرر الفعل، وهذا التَّكرار للفعل فيه سرٌّ لطيف نبّه عليه ﷻ تعالىٰ وكان قد وعد قريبًا أن يبينه، وهذا موطن بيانه، فهذا سر يقول: (فيه سر لطيف، وهو دلالته علىٰ أنَّ ما يأمر به) الرسول عليه الصلاة والسلام (تجب طاعته فيه وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن)، فإذن تفيد الآية، وإعادة الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ تفيد أنَّ ما يأمر به عليه الصلاة والسلام يُطاع فيه استقلالًا، حتىٰ وإن لم يكن مأمورا به في القرآن، لأنّ الله ﷻ أمر بطاعته استقلالًا ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فلا يقل قائل: هذا الذي أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام لم أَرهُ في القرآن! الله قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ استقلالًا فيما يأمر به، حتىٰ وإن لم يكن في القرآن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أوتيتُ» ماذا؟ «القرآن ومثله معه»، التي هي السنة فقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه أنه عليه الصلاة والسلام يُطاع فيما يأمر به، (تجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة)، (مفردة): يعني في أحاديث جاءت فيها أوامر لم تُذكر في القرآن، أو (مقرونة): في أحاديث جاء ما يدل عليها في القرآن، هذا يطاع وهذا يطاع، يطاع فيه صلوات الله وسلامه عليه.

(فلا يتوهم متوهم أنّ ما يأمر به الرسول) ﷺ، (إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب طاعته فيه)، ولهذا تُعدّ هذه الآية من أبلغ ما يُرد به علىٰ من يزعمون أنفسهم أنهم أهل القرآن أو قرآنيون، لا يعملون إلا بالقرآن، الله جل وعلا يقول في القرآن ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فأين هم من العمل بالقرآن إذا لم يعملوا بقول الله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؟ له طاعة استقلالًا، حتىٰ لو لم يكن ما ذكره أو أمر به، حتىٰ وإن لم يكن موجودًا في القرآن، علىٰ أنّ كل ما أمر به عليه الصلاة والسلام جاء الأمر في القرآن بالأخذ به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «يوشكُ رجلٌ شبعان متكئ علىٰ أريكته»، «شبعان متكئ علىٰ أريكته» هذه تفيد ماذا؟ سبق أن أشرت إلىٰ معنىٰ هنا، أظن مر معنا في معارج القَبول «شبعان متكئ علىٰ أريكته» ليس مشتغل بالعلم، العلم يحتاج نشاط وهمة وذهاب وطلب وبحث ورحلة إلىٰ آخره، وهذا جالس متكئ علىٰ أريكته يأكل ويشرب ولا عنده اشتغال بالعلم أصلًا، متفرغ للاتكاء والأكل، ثم يأتيه الحديث ويقول: هذا لم أجده في القرآن فلا آخذ به، «يوشك رجلٌ شبعان متكئ علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيني وبينكم كتاب الله»، خلَّك متكئ علىٰ أريكتك ومالك ولهذه الأمور، اتكِئ وكُلْ ولا تشتغل بهذا «بيني وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»، أي: التي هي السنة، فهذا المعنىٰ «ومثله معه»، الآية واضحة في تقريره في قوله جل وعلا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

وأما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية الله، فإن أمر بمعصية [الله] فلا سمع ولا طاعة» [صحيح البخاري ومسلم].

في ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لم يكرر الفعل، لم يقل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر) لماذا؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: لأنه (لا تَجب طاعةُ أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مُفردة مستقلة)، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا طاعة لمخلوق في» ماذا؟ «**معصية الخالق**» [صحيح الجامع].

ﮬﮬ ◊ ﮭﮭ

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل (وإلىٰ الرسول) فإنّ الرد إلىٰ القرآن ردٌّ إلىٰ الله والرسول، والرد إلىٰ السنة رد إلىٰ الله والرسول، فما يحكم به الله هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول هو بعينه حكم الله.

نعم، لأنّ الرسول مهمتُه إبلاغُ كلام من أرسله ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة:٩٩]، لا يأتي بشيء من قِبل نفسه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فمُهمته إبلاغ من أرسله، فطاعته هي بعينها طاعةُ الله، والامتثال لحكمه هو بعينه امتثال حكم الله، لأنه مبلِّغ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠].

ﮬﮬ ◊ ﮭﮭ

فإذا رددتم إلىٰ الله ما تنازعتم فيه – يعني إلىٰ كتابه – فقد رددتموه إلىٰ الله ورسوله، وكذلك إذا رددتموه إلىٰ رسوله فقد رددتموه إلىٰ الله والرسول، وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمدَ في ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء، والثانيةُ: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيحُ أنها مُتناوِلة للصنفين جميعا، فإنّ العلماءَ والأمراء هم ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فالعلماء ولاتُه حفظًا، وبيانًا، وبلاغًا، وذبًّا عنه، وردًّا علىٰ من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلّهم الله بذلك فقال تعالىٰ: ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [الأنعام]، فيا لها من وكالةٍ أوجبت طاعتهم، والانتهاء إلىٰ أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم.

والأمراء وُلاتهم قياما ورعايةً وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذِهم علىٰ يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبع لهم ورعية.

هذا تقريرٌ منه رَحِمَهُ اللهُ تعالىٰ في معنىٰ قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ من هم؟ هل هم العلماء؟ أو الأمراء؟ من هم أولو

الأمر في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هل هم العلماء؟ أو الأمراء؟ قال: (اختلفت الرواية عن الإمام أحمد فعنه فيه روايتان)، وقال: (والقولان ثابتان عن الصحابة)، يعني في معنىٰ الآية، منهم من قال: الأمراء، ومنهم من قال: العلماء، كلا القولين مأثور عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تفسير الآية، (والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعا)، كلٌّ منهم ولاة أمر، العلماء والأمراء، هؤلاء ولاة أمرٍ في باب، وهؤلاء ولاة أمر في باب آخر، العلماء ولاة أمر في حفظ الدين وبيانه وبلاغه والذب عنه والرد علىٰ من ألحد، هذه مهمة العلماء، وولاة الأمر الأُمراء، ولاةُ أمر من حيث القِيام علىٰ نُصرة الدين ورعايته، والجهاد في الذب عنه وإلزام الناس به، ولهذا جاء في الأثر: إنّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. [قاله عثمان بن عفان، والمصدر: «الكامل في اللغة والأدب»] (وأخذِهم علىٰ أيدي من خرج عنه)، فهذان الصنفان هم ولاة الأمر، العلماء والأُمراء، العلماء مثل ما قال وأورد الآية في الحفظ والبيان والبلاغ وقد وكّلهم الله بذلك، وكّلهم الله بالحفظ والبلاغ والبيان، وكّلهم واستدل علىٰ ذلك بالآية ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمَا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾.

﴿وَكَّلۡنَا﴾ يقول ابن القيم: (فيا لها من وكالةٍ أوجَبت طاعتهم والانتهاء إلىٰ أمرهم، وكون الناس تبعا لهم)، لأن الله قال: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ وقصد بهؤلاء العلماء، وهنا مسألة أُشيرُ إليها، وهي فائدة نبّه عليها ابن القيم: هل يستقيم أن يُقال عن العالِم استنادًا إلىٰ قوله: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ وكيل الله؟ هل يستقيم أن يُقال: العالِم وكيلُ الله؟ والدليل ﴿وَكَّلۡنَا﴾؟ ذكر ابن القيم في كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ «مفتاح دار السعادة» فائدة حول هذه المسألة، قال: لا يلزم من إطلاقِ فِعل التوكيد المقيد بأمرٍ ما، أن يُصاغَ منه اسم فعل مطلق، هذا ينطبق علىٰ قوله: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ لا يؤخذ منه وكيل الله، أيضا ينطبق علىٰ قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٢٩]، ما يقال خليفة الله! يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يلزم من إطلاق فعل التوكيد المقيد بأمرٍ ما، أن يصاغ منه اسم فعل مطلق.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩] وهذا دليلٌ قاطعٌ علىٰ أنه يجب ردُّ موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلىٰ الله ورسوله، لا إلىٰ أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد علىٰ غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلىٰ تحكيم غير الله ورسولِه فقد دعا بدعوىٰ الجاهلية، فلا يدخلُ العبد في الإيمان حتىٰ يَرُدّ كل ما تنازع فيه المتنازعون إلىٰ الله ورسولِه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ وهذا مما ذكرناه آنفًا أنه شرطٌ ينتفي المشروط بانتفائه، فدل علىٰ أنّ من حكّم غير الله ورسولِه في موارد النزاع كان خارجا عن مقتضىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبُك بهذه الآية القاصِمة العاصِمة بيانًا وشفاءً، فإنها قاصمةٌ لظهور المخالفين لها، عاصمةٌ للمتمسكين بها، الممتثلين لما أمرت به ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ

﴿٤٢﴾ [الأنفال].

هذا وصف بليغ لهذه الآية، قال: (العاصمة القاصمة)، عاصمة لقوم وقاصمة لآخرين، هذه الآية (عاصمة للمتمسكين الممتثِلين)، من يردّون النزاع إلىٰ الله والرسول عليه الصلاة والسلام، و(قاصمة لظهور المخالِفين) لها ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقد اتفق السلف والخلف علىٰ أنّ الردَّ إلىٰ الله هو الردُّ إلىٰ كتابه، والردُّ إلىٰ رسوله ﷺ هو الردُّ إليه في حياته، والردُّ إلىٰ سنتِه بعد وفاتِه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: هذا الذي أمرتُكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولي الأمر، وردِّ ما تنازعتم فيه إليّ وإلىٰ رسولي، خيرٌ لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبة، فدلَّ هذا علىٰ أنَّ طاعة الله ورسولِه وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلا وآجلا.

هذا الكلام الآتي عظيم جدًّا، حقيقة جدير بالتأمل جيدًا، كلام عظيم ومتين وفيه أيضا نُصْح رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن تدبّر العالَم والشُّرور الواقعةَ فيه، علم أنّ كُل شرٍّ في العالم فسببه مخالفةُ الرسول ﷺ، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالمِ فإنما هو بسبب طاعةِ الرسول ﷺ، وكذلك شرورُ الآخرة وآلامُها وعذابها إنما هي موجبات مخالفة الرسول ﷺ ومقتضياتُها، فعاد شرُّ الدنيا والآخرة إلىٰ مخالفة الرسول ﷺ وما يترتب عليه، فلو أنّ الناس أطاعوا الرسول ﷺ حق طاعته لم يكن في الأرض شرٌّ قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ﷺ، وإلا فطاعته هي الحصن الذي من دخله فهو من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه فهو من الناجين.

فعُلم أن شرور الدنيا والآخرةِ إنما هي الجهلُ بما جاء به الرسول ﷺ والخروجُ عنه، وهذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا باجتهاده في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والقيام به عملا.

وكمال هذه السعادةِ بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوة الخلق إليه.

والثاني: صبره وجهاده علىٰ تلك الدعوة.

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ.

الثانيةُ: العمل به.

الثالثةُ: بثُّه في الناس ودعوتهم إليه.

الرابعةُ: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه.

نعم، واجتمعت هذه الأربعة في سورة العصر، قول الله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر] فهذه الأمور الأربعة التي ذكر هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهي الموجبة للسعادة والنجاة من الخسران، فلا يسعد إلا من كان كذلك، ولا يسلم من الخسران إلا من كان كذلك، من أهل هذه الأوصاف العظيمة في هذه السورة الوجيزة البليغة، بهذا وصفها عمرو بن العاص: الوجيزة البليغة، وجيزة في لفظها بليغة في دلالتها، لأنها أحاطت بموجبات السعادة والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، وأنها بهذه الأمور الأربعة.

والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جاء عنه أنه قال: لو تدبر الناس هذه الآية لكفتهم، فيها كفاية لأنها بليغة وعظيمة، في جمعها مع وجازة ألفاظها لأسباب السعادة والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، وعلىٰ ذكر الشافعي أعود مرة أخرىٰ، الشافعي يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وبعض من يزعم الاجتهاد الآن يُبَيِّنْ له أنّ الحديث الذي استدل به حديث موضوع فلا يرجع، يبين له أن الحديث الذي قد استدل به علىٰ مسألةٍ ما حديثٌ موضوع، أو لا يصح، أو قصة غير صحيحة، لا يرجع عن ذلك، فانظر الفرق بين من يعظِّمون السنة وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن هو في وادٍ آخر غير وادي هؤلاء الأئمة الأجلاء النبلاء رحمهم الله.

ومن تطلَّعت همته إلىٰ معرفة ما كان عليه الصحابة وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقا.

نعم هذه طريقة الصحابة وهذا مسلكهم، ومن كان علىٰ الأثر فهو علىٰ الطريق، أي: علىٰ الطريق الصحيح القويم الموصل إلىٰ رضوان الله ﷻ وجنّته.

فإن شئت وصْل القوم فاسلك طريقهم ... فقد وضحت للسالكين عِيانا

الطريق واضحة، وبيِّنة، ومعالمُها ظاهرة، (فإن شئتَ وصل القوم فاسلك طريقَهم)، اسلك المَسْلك الذي سلكوه، وجاهد نفسكَ علىٰ أنْ تأتسيَ بهم وأن تلزمَ غرزهم وأن تنهجَ نهجَهُم، لتكون ممن قال الله فيهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠] فإنما يكون ذلك بلُزوم نهجِهم، وسلوكِ مسلكِهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ الدليل السادس من أدلة هذا الفصل، نؤجل الحديث عنه إلىٰ لقائنا القادم.

نسأل الله أن ينفعنا أجمعين بِما علَّمنا وأن يزيدَنا علما وتوفيقا، وأن يصلِح لنا شأننا كله، وألا يكِلَنا إلىٰ أنفسنا طرفةَ عين، اللَّهُمَّ اغفر لنا ووالدينا ووالديهم وذرياتهم والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياءِ منهم والأموات، اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا بهِ جنتك، ومن اليقينِ ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللَّهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

شرح

الرسالة التبوكية

زاد المهاجر إلى ربه/ابن القيم

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

من الدرس (٧) إلى (١٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع

١٤٤٠/٠٤/١٠

وقال تعالىٰ لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾ [سبأ]، فهذا نصٌّ صريحٌ في أنّ هُدىٰ الرسول ﷺ إنّما حصل بالوحي، فيا عجبًا كيف يحصل الهُدىٰ لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة!؟ ولكن ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف]، فأيّ ضلالٍ أعظم من ضلال من يزعم أنّ الهداية لا تحصُل بالوحي، ثم يحيل فيها علىٰ عقل فلان ورأي فلتان، وقول زيدٍ وعمرو، فلقد عظُمت نعمة الله علىٰ عبدٍ عافاه من هذه البلية العظمىٰ والمصيبة الكبرىٰ، والحمد لله ربِّ العالمين.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الدليل السادس من الأدلة التي ساقها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا الفصل المتعلق بالهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، اتباعًا له واهتداءً بهديه ولزومًا لنهجه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية الكريمة، قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ (لرسوله ﷺ: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ٥٠﴾) الشاهد من الآية الكريمة قوله جل وعلا مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ أي: أنّ الهداية الحاصلة للرسول عليه الصلاة والسلام إنما هي بالوحي، نظير هذه الآية ما جاء في آخر السورة قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، فالهداية بالوحي لا بغيره، الهداية التي حصلت للرسول وتحصل لمن شاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من أمته عليه الصلاة والسلام إنما هي بالوحي، وحي الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ المنزَّل من الله جل وعلا، فلا هداية إلا بالوحي، لا هداية إلا بوحي الله جل وعلا.

قال ابن القيم: (فهذا نص صريح في أن هُدىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام إنما حصل بالوحي)، واستحضِر هنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام أكمل الخلق، وأرجحهم عقلًا، وأعظمهم فطنة وفهمًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، يقول ابن القيم: (فيا عجبًا كيف يحصل الهُدىٰ لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة!؟) كيف تحصل هداية من هذه الأشياء والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يأمر رسوله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية يقول: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ ففي الآية أنّ

الهداية لا تكون ولا تُنال إلا بالوحي، (فأيّ ضلال أعظم من ضلال من يزعم أنّ الهداية لا تحصل بالوحي)، هذه من أعظم المصائب والجنايات علىٰ الناس، أن يدّعي مُدَّعٍ أنّ الهداية لا تحصل بالوحي وإنما تحصل بالآراء أو تحصل بالعقول، وهذه الكلمة حتىٰ وإن لم يقلها بعضهم صراحة لكنه يقولها واقعًا في عمله، مُعرض عن الوحي، حتىٰ وإن لم ينطق بها صراحة - أنّ الهداية ليست بالوحي - لكنه معرض عن الوحي، لا يطلب الهداية من جهته، وإنما هو متجه إلىٰ فكرهِ أو رأيه أو عقله أو غير ذلك من المصادر المتخذة المزعومة.

قال: (ثم يحيل فيها علىٰ عقل فلان ورأي فلتان)، وعندما يُحال الناس في الدِّين إلىٰ العقول أي شيء يحصل للناس؟ قال بعض السلف قديمًا: لو كانت الأهواء هوًىٰ واحدًا لقيل أنه الحق، ولكنها أهواء! ويمكن أن يُقال علىٰ النسق نفسه: لو كانت العقول عقلًا واحدًا لقيل: إنه الحق، لكن عقول! ولهذا في رد مثل ذلك قال بعض السلف: عقل من!؟ إذا كانت الإحالة علىٰ العقول فعقلُ مَن الذي يُحال إليه!؟ وهل العقول مُتّحدة علىٰ رأيٍ واحد!؟ حتىٰ صاحب العقل الواحد تجده مرةً يرىٰ رأيا وفي غدٍ يرىٰ ضده وخلافه، يتغير عقله ورأيه، فإذا أحيل الناس إلىٰ العقول ضاعت أديانهم وفسدت عقائدهم وحصل انحرافهم، كيف يُحال إلىٰ العقول ويُترك منبع الهداية ومَعينُها الوحيد وهو الوحي المُنزّل من الله ﷻ.

قال: (فلقد عظُمت نعمة الله علىٰ عبدٍ عافاه الله من هذه البلية)، لا شك أنّ هذه والله من أعظم النعم، أن يُعافىٰ المرء من تلك المسالك، وأن يجد نفسه مقبلة علىٰ وحي الله، تهتدي بهداه وتنهل من معينه وتطلب الهداية منه، لا تطلبها من أي مصدرٍ آخر.

ﮂﮂ◈ﮃﮃ

وقال تعالىٰ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

فأمر سبحانه باتباع ما أنزل علىٰ رسوله، ونهىٰ عن اتباع غيره، فما هو إلا اتباع المُنزل أو اتباع أولياء من دونه، فإنّه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتّبع الوحي فإنما اتبع الباطل، واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

هذا الدليل السابع قول الله ﷻ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الأعراف].

الشاهد قوله جل وعلا: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ أمرٌ باتباع المُنزل، ونهيٌ عن اتباع غير المنزل، ولهذا الدِّين أو الأديان التي عند الناس هي لا تخرُج عن قسمين واضحين في الآية: إما دينٌ منزَّل، أو دينٌ نابت في الأرض، ما يخرج عن ذلك، والحق والهدىٰ إنما هو في الدِّين المُنزّل من رب

العالمين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ولهذا تجد في رد الأنبياء باطل أقوامهم، يقولون في رد باطل أقوامهم: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [يوسف:٤٠]، يعني هذه الأشياء التي أنتم عليها ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ وهذا فيه أنّ الحق إنما هو في المنزل من رب العالمين؛ لأن الدين لله ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى:٢١] الدين لله ﷻ، يشرع ما يشاء ويحكم ما يريد ﷻ، فالأديان التي عند الناس لا تخرج عن قسمين: إما دين منزَّل، أو دين نابت، نبت في الأرض، نشأ في الأرض، اخترعته عقول الناس وآراؤهم وتجاربهم وما إلىٰ ذلك، وربُّ العالمين جل وعلا لا يرضىٰ لعباده دينًا سوىٰ المنزل منه جل وعلا، لا يرضىٰ غير ذلك ولا يقبل غير ذلك ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، فالله لا يرضىٰ إلا المنزل منه جل وعلا.

ما أمارة المنزَّل؟ أمارته عند الاستدلال لهُ يُقال: قال الله، قال رسوله ﷺ. هذه أمارته، أمارة المنزَّل أن يقول القائل في استدلاله: قال الله قال رسوله ﷺ، هذا هو المنزل، «أوتيت القرآن ومثله معه» [صحيح الجامع – بلفظ: الكتاب بدلا من القرآن]، هذا الوحي المنزل الذي أُمِرَ العباد باتِّباعه ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾.

قال ابن القيم: (فما هو إلا اتباع المنزل أو اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة)، ما هناك خيار ثالث أو طريق ثالث أو مسلك ثالث، إما المنزل أو النابت، خيار ثالث لا يوجد، فمن لم يتبع المنزل من الله فهو علىٰ باطل أيًّا كان مذهبه، أيًّا كان مسلكه، أيًّا كانت طريقته علىٰ باطل، لأنّ الحق انحصر في المُنزل من رب العالمين ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ يقول ابن القيم أخذًا من الآية: (فكل من لم يتَّبع الوحي فإنما اتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله)، مثلما قال الله في الآية الأخرىٰ ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص:٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [الفرقان].

فكل من اتخذ خليلًا غير الرسول ﷺ، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول، فإنه قائلٌ هذه المقالة لا محالة، ولهذا فإنه سبحانه لم يُعيّن هذا الخليل، وكَنَّىٰ عنه باسم فلان، إذ لكل مُتبعٍ أولياء من دون الله فلان وفلان، فهذا حال هذين الخليلين المُتخالّين علىٰ خلاف طاعة الرسول، ومآل تلك الخلة إلىٰ العداوة واللعنة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [الزخرف].

هذا الدليل الثامن من الأدلة التي ساقها، وفي هذا الدليل الندامة الكبرىٰ والحسرة العظمىٰ التي تكون يوم القيامة لمن لم يتبع المنزل، ولم يتبع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فكل من ترك اتباع الرسول سيعض أصابع الندم والحسرة يوم القيامة ولا ينفعه ذلك! ندامةٌ لا تنفع وحسرةٌ لا تُجدي ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ يقول هذه نَدِمًا ومتحسرًا علىٰ ما كان من تفريطٍ في اتباع الرسول واتباع المنزَّل علىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ وهذا أيضًا تحسُّر من الأخلَّاء المُتَّخذين الذين كانت خلتهم مهلكة للإنسان وضياع، ولهذا خليل السُّوء وصديق السوء ورفيق السوء هذا مصيبة علىٰ صاحبه وبلوىٰ! وسيندم المرء يوم القيامة ندامة شديدة علىٰ مرافقة هؤلاء الخلطاء، خلطاء السوء ورفقاء السوء، وكان قديمًا خليط السوء رفيقٌ، ترىٰ شخصه أمامك بذاته، يُماشيك ويحدثك ويستجرّك لما عنده، بينما استجد في زماننا هذا أمر لم يكن موجودا في تاريخ البشرية فيما سبق من تاريخ البشرية، وهو مصاحبة الأجهزة الحديثة، هذه الصحبة التي لم تكن موجودة في زمان سابق، وكم سيندم أقوام يوم القيامة علىٰ صحبتهم لهذه الأجهزة، ورفقتهم لهذه الأجهزة، أعني من لم يوفق لاستعمال هذه الأجهزة في الخير والفائدة، وأخذ يدخل من خلالها علىٰ مواقع الشر والفساد والسوء والقبح والشهوات المحرمة والفواحش... إلىٰ غير ذلك، وفيها أودية ومتاهات مهلكة جدًّا، هلك بها أقوامٌ وأقوام، من الناس من ألحد، منهم من انحرف في عقيدته، في سلوكه، في خُلقه، في تعامله بسبب هذه الرفقة؛ الصحبة لهذا الجهاز، وادمان النظر والسماع إلىٰ ما فيه من شر وفساد.

أما من وفقه الله ﷻ لاستعمالها في الخير فهذه من نعمة الله عليه، من نعمة الله ﷻ عليه أن يسلِّم له بصره وسمعه وفكره من أن يعلق به شيء من اللوث والسوء والشر الذي في هذه الأجهزة، التي تشتمل علىٰ كثير من الشر.

أسألُ الله ﷻ في هذه الساعة المباركة بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وبأنه الله لا إله إلا هو أن يعافينا وإياكم وذرياتنا مما في هذه الأجهزة من شر وفساد إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ أرجع مرة أخرىٰ لما في القلوب من ألم من هذه الأجهزة، كم سيقول هذه الكلمة ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ كم تفوّت هذه الأجهزة من صلوات من طاعات من فرائض من واجبات من حقوق عظيمة... كم أهلكت أناس وأضلتهم عن ذكر الله ﷻ، وشغلتهم في متع محرمة ولهو باطل وتعلقات زائفة!؟ أضرت بالناس مضرة عظيمة ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى

عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ من وراء ذلك كله الشيطان أعاذنا الله وذرياتنا منه، فإنه يدفع الناس دفعًا، ووجد في هذه الأجهزة بُغية عظيمة له، وكم صدّ من خلالها خَلقٌ وخلق عن دين الله وصرفهم عن دينه ﷻ!؟

قال: (فكل من اتخذ خليلا غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول) ﷺ (فإنه قائل هذه المقالة لا محاله)، سيقول يوم القيامة ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ متندمًا، (ولهذا فإنه سبحانه لم يعيّن هذا الخليل)، انظر هذه اللطيفة من ابن القيم: (لم يعيّن هذا الخليل)، ما سمىٰ شخصًا، قال: ﴿فُلَانًا﴾ فلان هذه مثل ما يقول ابن القيم: (كَنَّىٰ عنه باسم فلان، إذ لكل متَّبع أولياء من دون الله فلان وفلان) يتَّبعهم، فلمَّا كان المتَّبعون أنواع كثيرة، ومسالكُهم متنوعة، كَنَّىٰ عنهم بفلان، ويدخل في فلان ماذا؟ أكملوا: الأجهزة، خاصةً أبواب الشر التي فيها هذه تدخل تحت فلان وفلتان، وما فيها من الشر والضياع نسأل الله العافية السلامة، نسأل الله العافية والسلامة..

وقد ذكر الله تعالىٰ حال هؤلاء الأتباع وحال من اتَّبعوهم في غير موضع من كتابه، كقول الله تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

تمنَّىٰ القوم طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول ﷺ، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلىٰ قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

نعم، يعني هذه (حال هؤلاء الأتباع وحال من اتَّبعوهم)، يوم القيامة يتمنىٰ القوم لو أطاعوا الله وأطاعوا الرسول (حين لا ينفعهم ذلك)، هذا التمني لا يجدي في ذلك الوقت ولا ينفع، (واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، آلت تلك الطاعة والموالاة) إلىٰ ما ذكره الله بقوله عنهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في الدنيا اتِّباع لهم، وفي الآخرة تمني ألّو لم يتبعوهم، ودعاء لله ﷻ أن يعذِّبهم عذابًا مضاعفًا (﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية)، والسعيد من اتَّعظ، السعيد من أخذ العبرة وأخذ منها يقظة لقلبه وانتباها قبل أن يكون – والعياذ بالله – من هؤلاء النادمين يوم القيامة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر.

نعم، هذا الدليل التاسع والأخير من الأدلة التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في هذا الفصل، وهي آيات عظيمة جدًّا فيها عبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين، وسيوضّح الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ بعضًا من معانيها وهداياتها.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ ذكر الصِّنفين المبطِلَين:

أحدها: منشأ الباطل والفرية وواضعها وداع الناس إليها.

والثاني: المكذِّب بالحق.

فالأول كفره بالافتراء وإنشاء الباطل.

والثاني كفره بجحود الحق.

وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل، فإن انضاف إلىٰ ذلك دعوته إلىٰ باطله، وصدّ الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لتضاعف كُفره وشره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل]، فلمَّا كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين، عذابًا بكفرهم، وعذابا بصدِّهم عن سبيله، وحيث يذكر الكفر المجرَّد لا يعدِّد العذاب كقوله: ﴿وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

هذا الموطن الأول من فوائد هذه الآية في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ صنفين من المبطلة؛ أهل الباطل، والأول ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الذي يفتري الكذب علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو من يُنشئ الباطل والفرية ويضعها بين الناس، والقسم الآخر من يكذِّب ما جاء عن الله، المكذِّب بالحق إذ جاءه، فالمُبطلة علىٰ صنفين: قسم يفتري علىٰ الله الكذب، ينشئ الباطل وينسِبه إلىٰ الله جل وعلا، وقسم يُكذِّب بالحق الذي جاء من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، (الأوَّل كفره بالافتراء وإنشاء الباطل، والثاني كُفره بجحود الحق) والتكذيب به.

قال: (وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل)، لكل صاحب باطل لأنه سينتصر لباطله، وكيف تكون الطريقة في الانتصار لباطله والدِّفاع عنه والحميّة عنه؟ له هذان المسلكان: إما أن يكذب علىٰ الله، أو أن يُكذِّب

بالمنزّل، إن احتُجّ عليه بالمنزّل كذَّب، وهو إن أراد أن يحتج كذَبَ وافترىٰ، فهو في انتصاره لبطاله يسير في هذين المسلكين، التكذيب بالحق، والكذب علىٰ الحق ﷻ، فإذا (انضاف إلىٰ ذلك دعوته إلىٰ باطله) فهذا الأمر أشد، والعقوبة أعظم؛ لأن عليه حينئذٍ عقوبتين، عقوبة الكذب والتكذيب، وعقوبة الدعوة إلىٰ ذلك، فيضاعف له العذاب ضعفين.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني ينالُهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرِّزق وغير ذلك.

هذا الموطن الثاني المستفاد من هذا السِّياق، قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني فيما يتعلَّق بأمر الدنيا ومُتعها وملذَّاتها إلىٰ غير ذلك، ينالهم الشيء الذي كُتب ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الشَّيء الذي كُتب وقُدّر من رِزْق أو صحة أو عافية... إلىٰ آخره، ينالهم نصيبهم الذي كُتب وقُدِّر. هذا في الدنيا ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني (في الدنيا)، من صحة، عافية، رزق، بيت، مسكن... إلىٰ غير ذلك ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الشيء الذي كُتب وقدّر.

وقوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني ينالهم ما كُتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أين من كُنتم توالون فيه وتعادون فيه، وترجونه وتخافونه من دون الله!؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة.

هذا الموطن الثالث في هذا السياق، إذا جاءت الملائكة لقبض أرواح هؤلاء، الذين كذّبوا بالحق، وكذَبوا علىٰ الحق ﷻ، إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم ﴿قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ قالت لهم الملائكة: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ كنتم تعتقدون فيهم نصرًا، عونًا، رزقًا... إلىٰ غير ذلك، أين هم؟ ها هي الملائكة جاءت لقبض أرواحكم، أين هؤلاء الذين تدعون من دون الله مِن نُصرتكم وإنقاذكم وتخليصكم!؟ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ ترجونهم، تسألونهم، أين هم؟ (﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ زالوا)، فارقونا، (بطلت تلك الدعوة! ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾) فهذه حسرة تلحقهم عند الموت، حسرة تلحق هؤلاء عند الموت، عند قبض أرواحهم، تقول لهم الملائكة عند مجيء رسل الله؛ أي: ملائكته لقبض أرواح هؤلاء ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أين هم؟ يخلِّصونكم، ينقذونكم!؟ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: (زالوا)، ذهبوا، ما أصبح لهم أي وجود، ثم يعترفون بأنهم كانوا في كفر، لكن كل هذا ماذا؟ لا ينفع ولا يجدي.

﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف] أي: ادخلوا في جملة هذه الأمم.

نعم، يعني ثم هم يعترفون أنهم كانوا كافرين، في حال صحَّتهم وتمتعهم بالدنيا كانوا متعلِّقين بهؤلاء، لكن لمّا آلوا إلىٰ هذه المآل وجاءت الرسل، رسل الله وملائكته لقبض الأرواح، شهدوا بـ ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ لكن هذه الشهادة لا تنفع شيئًا ولا تُجدي.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: كلُّ أمة متأخرة ضلت بأسلافها ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ أي: ضاعف عليهم العذاب بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، قال الله تعالىٰ: ﴿لِكُلّٖ ضِعۡفٞ﴾ أي: من الأتباع والمتبوعين، بحسب ضلاله وكفره ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ۝٣٨﴾ أي: لا تعلم كل طائفة بما في أختها من العذاب المضاعف.

وهذا من المواطن التي فيها عبرة عظيمة جدًّا للمعتبرين؛ لأن هؤلاء والعلائق التي بينهم والصلات، مهما قويت تؤول إلىٰ التلاعن في النار ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ ففي النار يكون أهل النار - والعياذ بالله - علىٰ هذه الحال، في تلاعن، كل أمة تلعن أختها، بينما أهل الإيمان ليس بينهم التلاعن، وإنما الذي بينهم التراحم، أمة متراحمة أمة الإيمان، يرحم بعضهم بعضًا، يدعو بعضهم لبعض، يستغفر بعضهم لبعض.. وهؤلاء هذا مآلهم، مهما كانت الرابطة يؤول أمرهم إلىٰ هذا المآل ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾.

﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ أي: فإنكم جئتم بعدنا فأُرسِلَت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذّروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا، وترك الحق الذي أتتكم به الرسل، فأي فضلٍ كان لكم علينا؟ وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركناه، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقومٍ آخرين، فأيُّ فضل لكم علينا!؟ ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٣٩﴾ [الأعراف] فلله ما أشفاها من موعظة، وما أبلغها من نصيحة لو صادفت من القلوب حياة! فإنّ هذه الآيات وأمثالَها مما تذكّر قلوب السائرين إلىٰ الله، وأما أهل البطالة الثَّكلة فليس عندهم من ذلك خبر.

نعم، هنا، يعني في هذه الآيات وفي غيرها، يذكر الله ﷻ في مواطن من القرآن أقوال أهل النار، ماذا يقول بعضهم لبعض، وهذا الحوار ذكره الله لعباده في القرآن حتىٰ يعتبروا ويتعظوا، ويأخذوا من ذلك عبرة فيكون لهم نجاة من هذا المصير، وسلامة من هذا المآل - أعاذنا الله أجمعين وذرياتنا من النار -.

فذكر ﷻ أولًا: أنّ الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف:٣٨]، ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ

أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ ضاعف لهم العذاب؛ لأنهم هم الذين أضلونا وحرفونا، هذا قول الأتباع، فيجيبهم المتبوعون بماذا؟ قال الله: ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ﴾ ما في مزية، نحن مثلكم كان قبلنا أناس وتبعناهم في الضلال، جاءت رسل الله ما قبِلنا، وأعرضنا عن الحق الذي جاءت به رسل الله، وأنتم مثلنا! ما في فرق بيننا وبينكم، ولا في مزية، نحن مثلكم، علىٰ قول أهل الباطل: نحن في الهواء سواء! أي الباطل، ما في مزية بيننا وبينكم، في خندق واحد في مسلك واحد في مهلكة واحدة! نحن كان لنا أقوام قبلنا نهجنا نهجهم وسلكنا طريقهم، جاءتنا الرسل بالحق والهدىٰ من ربنا فما قبلنا، وأنتم مثلنا ما لكم علينا من فضل ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩﴾ الدرب واحد، ما ثمة فرق بيننا وبينكم.

(فلله ما أشفاها من موعظة، وما أبلغها من نصيحة لو صادفت) قلوبا حية، وهذا تنبيه من ابن القيم أنّ هذه الأقوال – أقوال أهل النار – وهي ذكرت في القرآن في مواطن يذكر أقوالهم، حتىٰ يعتبر الإنسان ويتعظ، ويسأل الله العافية والسلامة من هذا المصير وهذا المآل..

فصل

فهذا حكم الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة.

الذي تقدم هو في حال (الأتباع والمتبوعين المشتركين في الضلالة)، لأن الأتباع والمتبوعين علىٰ أقسام، هذا قسم الآن، القسم الثاني:

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم، العادلون عن طريقتهم، الذين يزعمون أنهم تبعٌ لهم وليسوا متبعين لطريقتهم، فهم المذكورون في قوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة]، فهؤلاء المتبوعون كانوا علىٰ الهدىٰ، وأتباعهم ادعوا أنهم علىٰ طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم، سالكون غير طريقهم، يزعمون أنهم يحبونهم، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم.

هذا قسم الآن، هذا قسمٌ أخر (الأتباع المخالفون لمتبوعيهم) يدّعي أنه تابع وأنه من أتباعه، لكنه مخالف له، مثلًا: النصارىٰ يدّعون أنهم أتباع عيسىٰ، لكن أين هم والشأن الذي كان عليه عيسىٰ عليه السلام!؟ وعيسىٰ يتبرأ منهم ومن اتباعهم المزعوم هذا له – أنهم أتباع له – لأنهم يزعمون أنهم أتباع له وهم في الحقيقة يسلكون

غير مسلكه، وهذا كثير، انتبه لقول النبي ﷺ: «**لتتبعن سَنن من كان قبلكم**» [متفق عليه]، إذا كان هناك من يدعي أنه يتبع عيسىٰ وهو في الحقيقة مخالف له، أيضًا في الأمة سيوجد من يكون عنده الاتباع بالادعاء فقط، ثم يسلك مسالك أخرىٰ: عبادة القبور، عبادة الأضرحة... وغير ذلك، وهو يدّعي أنه متبع للرسول، والرسول عليه الصلاة والسلام إنما بعث بإبطال ذلك: «**لَعْنَةُ اللهِ علَىٰ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يُحَذِّرُ ما صَنَعُوا. [صحيح البخاري ومسلم]، عليه الصلاة والسلام، مِن أن يفعل أحدٌ من أمّته مثل فعل هؤلاء، تحذيرًا مما صنع هؤلاء، قال ذلك في لحظاته الأخيرة من هذه الحياة صلوات الله وسلامه عليه.

فهذا قسم آخر (الأتباع المخالفون لمتبوعيهم العادلون عن طريقتهم)، العادلون: أي المائلون، (الذين يزعمون أنهم تبع لهم وليسوا متبعين لطريقتهم، فهؤلاء المتبوعون كانوا علىٰ) هدىٰ، (وأتباعهم ادعوا أنهم علىٰ طريقتهم ومنهاجهم؛ وهم مخالفون لهم سالكون غير) طريقتهم، (ويزعمون أنهم يحبونهم، وأنّ محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم لهم، فيتبرؤون منهم) أي: المتبوعون، يتبرؤون من أتباعهم (يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله).

وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم ويعادي لهم، ويرضىٰ لهم ويغضب لهم، فإنّ أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يُجرّد موالاته ومعاداته ومحبته وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله ﷻ ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب، وهي الوُصَلُ والمولاة التي كانت بينهم في الدنيا لغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة وموالاة كانت لغير الله، ولا يبقىٰ إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلىٰ رسوله، وتجريد عبادته وحده، ولوازمها من الحب، والبغض، والعطاء، والمنع، والمولاة، والمعاداة، والتقريب، والإبعاد، وتجريد متابعة رسوله وترك أقوال غيره لقوله، وترك كل ما خالف ما جاء به والإعراض عنه، وعدم الاعتداد به، وتجريد متابعته تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلىٰ غيره، فضلًا عن الشركة بينه وبين غيره، فضلًا عن تقديم قول غيره عليه! فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول، ثم إليها مرجعه.

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوىٰ ... ما الحب إلا للحبيب الأوّلِ
كم منزل في الأرض يألفه الفتىٰ ... وحنينه أبدًا لأوّل منزل

(الآخيّة) عود أو عصا تغرز في الأرض ويُشدّ بها الحبل المربوط بالدّابة، فإذا أخذت الدابة ترعىٰ من

الأرض فإن رعيها يكون في ماذا؟ في حدود هذه الآخية، تجول ما تجول لكنها ما تخرج عن هذا الحد، فآخيته التي عليها يجول، يعني: هو يدور لكنه حول السنة، مثلما قال بعض السلف: ندور مع السنة حيث دارت، هذا مسلكهم، يدور مع السنة يعني: إثباتًا ونفيًا، نُثبت ما ثبت وننفي ما نفت، ونعمل بما أُمرنا به في السنة، وننتهي عما نُهينا عنه فيها.

وهذه النسبة هي التي تنفع العبد، فلا ينفعُه غيرها في الدور الثلاثة، أعني دار الدُّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار.

النسبة تقدم الكلام عنها أي: الهجرة إلىٰ الله وإلىٰ رسوله، إذ الهجرة لله بالتوحيد وللرسول بالاتباع، هذه النسبة والوُصلة هي التي تنفع في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، (في الدور الثلاثة).

فلا قِوام له ولا عيش ولا نعيم ولا فلاح إلا بهذه النسبة، وهي السَّبب الواصل بين العبد وبين الله، ولقد أحسن القائل حيث قال:

إذا تقطَّع حبل الوصل بينهم ... فللمحبِّين حبل غير منقطعِ

وإن تصدَّع شمل الوصل بينهم ... فللمحبِّين شمل غير منصدعِ

نعم، والحق الموصل إلىٰ الله ﷻ يسمَّىٰ حبل ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

والمقصود أنّ الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعُلَقَ والوُصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها.

كل وُصلة وكل علاقة مهما قويت تنقطع ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ الوصل والعلاقات كلها تنقطع إلا الوصلة والسبب التي في الله ولله، فما كان لله دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

ولا يبقىٰ إلا السبب والوُصلة التي بين العبد وبين ربِّه فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقُّق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامُه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت علىٰ ألسنتهم، وما عُرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

نعم، أي أنّ الأعمال كلها تذهب سدىٰ، وتضيع هباء، إلا إذا كانت علىٰ هذا الأساس: خالصةً لله، موافقة لهدي رسوله عليه لصلاة والسلام، ولهذا جاء في الحديث القُدْسي: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء**

عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [صحيح مسلم]، هذا يتعلق بالإخلاص، وفيما يتعلق بالمتابعة قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» [صحيح مسلم]، أي: مردود علىٰ صاحبه غير مقبول منه، فالأعمال لا تكون نافعة ولا مشكورة مقبولة يوم القيامة إلا بهذا القيد ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

فهذه الأعمال التي كانت في الدنيا علىٰ غير سنة رسله وطريقتهم، ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات علىٰ العبد يوم القيامة، أن يرىٰ سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلىٰ عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم.

نعم، الهباء يعني المذكور في الآية، قيل في معناه: أنه رذاذ التراب اليسير الذي لا تكاد تراه إلا إذا اخترقت الشمس جزءًا من النافذة، فترىٰ مع شعاع الشمس رذاذ يسير جدًّا لا يُرىٰ إلا في مثل هذه الحالة، سبحان الله؛ أعمال كبيرة وعديدة ومتنوعة يجدها صاحبها بهذه الصِّفة! (هباءً منثورًا) أي لا شيء، لا يجدها شيئًا ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور:٣٩]، وهذا من أعظم العِبَر التي ينبغي للإنسان أن ينتبه لها، فيجاهد نفسه علىٰ أن تكون أعماله خالصة لله موافقة لهدي رسوله عليه الصلاة والسلام، حتىٰ لا تضيع وتذهب هباءً منثورًا يوم يقف بين يدي الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تعالىٰ سميعٌ قريبٌ مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن

١٤٤٠/٠٤/١٨

فصلٌ

فهذا حكم الأتباع الأشقياء، فأما الأتباع السعداء فنوعان:

أتباع لهم حكم الاستقلال، وهم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠]، فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضىٰ الله عنهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ وكل من تبعهم بإحسان، وهذا يعمّ كل من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة، ولا يختص ذلك بالقرن الذين رأوهم فقط، وإنما خُصّ التابعون بمن رأىٰ الصحابة تخصيصا عُرفيًّا ليتميزوا به عمن بعدهم، فقيل (التابعون) مطلقًا لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ورضوا عنه.

وقيّدَ سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان ليست مطلقة، فتحصل بمجرَّد النسبة والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعيَّةٌ مصاحبة للإحسان، فإنّ الباء هنا للمصاحبة، والإحسان في المتابعة شرطٌ في حصول رضىٰ الله عنهم وجناته.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. لمَّا ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما يتعلق بـ(الأتباع الأشقياء)، عقد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذا الفصل لبيان (الأتباع السعداء)، هنا تقف متأمِّلا في كلمة (الأتباع) ففيهم أهل سعادة، وفيهم أهل شقاء، وهذا حقيقةٌ يفيد في أمر مهم، ألا وهو تأثير القُدوة في حياة الإنسان، وأنّ الإنسان ينبغي أن يكون حصيفًا نبيهًا، يجعل القُدوات الذين يأْتسي بهم أهلَ فضلٍ ونُبلٍ وطاعةٍ وحُسنَ تقرُّبٍ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذه التبعية مثل ما نرىٰ: أتباع سعداء وأتباع أشقياء، ويندم غاية النّدم من يكون تابعًا للأشقياء في شقائهم، والضُّلّال في ضلالهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، يندم ندامةً عظيمة! ولهذا ينبغي أن ينتبه المرء هنا، وأن يرتقي بنفسه، بأن يكون من التَّابعين بإحسانٍ للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ومن تبعهم، ليكون من أهل رِضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجاهد نفسه علىٰ تحقيق ذلك.

والإنسان متأثِّر بمن يجالس ولابد ومَن يصاحب، ولهذا جاء في الحديث عن نبينا ﷺ أنه قال: «**المرء علىٰ دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**» [صحيح الترمذي]، فهو متأثر بالخليل والصاحب ولابد، فكان من أهم

ما يكون لتحقّق الاستقامة أن يتخير المرء الجلساء الذين يكون تأثره بهم في مجالسته لهم وصحبته لهم في خيرٍ وبرٍ وطاعةٍ وإحسان، وأن يحذر من جُلساء الشر وخلطاء الفساد؛ لأنّ أهل الفساد يجرون من يصحبهم إلىٰ فسادهم، كما أنّ أهل الخير يحرِصون علىٰ دلالة النَّاس إلىٰ هذا الخير الذي وفقهم الله ﷻ له وهداهم إليه، والصاحب ساحب ومؤثر في صاحبه ولابد، فالحاصل أن هذه وقفة نستفيدها من كلام الإمام ابن القيم رحمة الله عليه عن الأتباع الأشقياء والأتباع السعداء.

أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ وهذا موطن الشَّاهد من الآية، اتِّباع الصحابة بإحسان، وقوله: (﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ الباء) كما بيَّن رحمة الله عليه (للمصاحبة)، فهو بهذه المتابعة متابعٌ لهم بإحسان، لا بالدعوىٰ المجردة ولا بمجرد الانتساب، لو أنّ الإنسان انتسب إلىٰ السَّلف الصالح انتسابًا مجرَّدًا لا ينفعه ذلك عند الله، وإذا ادّعىٰ لنفسه أنَّه علىٰ نهجهم وهو ليس كذلك لا ينفعه عند الله، وإنَّما النافع بإذن الله ﷻ هو الاتباع بإحسان، واللُّزوم لمنهجهم بصدقٍ، كما هو واضحٌ في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ فيكون مُحسِنًا في ترسُّم خُطىٰ السلف، والسَّير علىٰ منهاجهم، ولزوم خُطاهم، ولا يخدع الإنسان نفسه لا يغرّها، النفس تغتر؛ لكن لا يغرّ نفسه، ولهذا من أنفع ما يكون في هذا الباب رؤية التقصير في النفس، ويرىٰ نفسه دائمًا مقصِّرًا في اتباع السلف وسلوك منهجهم، ويجاهد نفسه مجاهدة عظيمة علىٰ التحلِّي بما كانوا عليه من عبادات عظيمة، وأخلاق فاضلة، وآدابٍ كاملة، فالأمر كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ (لا تحصُل بمجرد النسبة والاتباع).

النِّسبة: أن ينسب نفسه إليهم، والاتباع: أن يدّعىٰ لنفسه أنه من أتباعهم، فبهذا مجرَّدًا لا يكفي، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنّ الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقته الأعمال.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الباء هنا للمصاحبة، والإحسان في المتابعة شرطٌ في حصول رضىٰ الله)، لأنَّ الاتباع الذي أثنىٰ الله علىٰ أهله وأخبر برضاه عنهم مقيَّدٌ بهذا القيد ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ بأن يكون محسنًا في اتباع السلف، وهذا الإحسان في اتباع السلف فرعٌ عن المعرفة بهم وسِيَرِهم وأخبارهم وأعمالهم وسلوكهم... وكلَّما كان المرء أقرب إلىٰ السير علىٰ منهاجهم كان إلىٰ الحقِّ أقرب، كل من كان بهم أشبه كان إلىٰ الحق أقرب، كلّ ما كان المرء متأسِّيًا بهؤلاء السابقين أهل الفضل والخير كل ما كان أقرب إلىٰ الخير، وهذا لا يكون إلا بتحقيق هذا المعنىٰ (الاتباع بإحسان) كما هو واضح في الآية الكريمة.

ونبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ علىٰ أنّ هذا باقٍ الى آخر الزمان (الاتباع بإحسان)، أما وصف من رأوا الصحابة وأخذوا عنهم بالتابعين، هذا وصفٌ عُرفي، يُقال عن هذه الطبقة: (التابعون)، ومن أخذوا عنهم (أتباع التابعين)، ومن

أخذوا عن أتباع التابعين (أتباع الأتباع...) وهكذا، هذا وصفٌ عرفي، لكن المعنىٰ الذي قُرِّر في الآية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ هذا باقٍ إلىٰ قيام الساعة، باب الاتِّباع للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بإحسان - الذي به نيل الرضوان - هذا مفتوح إلىٰ قيام الساعة.

نسأل الله الكريم العظيم المنَّان المتفضل سبحانه، أن يفتح علينا أجمعين باتباعهم، والسير علىٰ منهاجهم، وأن ينيلنا أجمعين رضاه بمنه وكرمه.

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة].

هذه الآيات ساقها؛ لأنّ فيها شبَهًا بالآية التي أورد وهي قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ فإنّ قوله جل وعلا هنا: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾ فيه إشارة إلىٰ التابعين لهم بإحسان، فأول الآية فيمن صحبوا النبيَّ عليه الصلاة والسلام، أول هذه الآيات فيمن صحب النبي ﷺ، ثم بعد ذلك الآخرين الذين لحقوهم وتبعوهم بإحسان، علىٰ ما يأتي بيانه عند ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ.

فالأولون: هم الذين أدركوا رسول الله ﷺ وصحبوه، والآخرون الذين لم يلحقوا بهم: وهم كل من بعدهم علىٰ منهاجهم إلىٰ يوم القيامة، فيكون التأخُّر وعدم اللَّحاق بهم في الزمان.

هذا معنىٰ من هذه الآيات ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هذه المعاني العظيمة أخذها الصحابة عن النبيِّ ﷺ منه مباشرة بلا واسطة، رأوا عباداته وسُلوكه عليه الصلاة والسلام، رأوا طاعاته وتقرُّبه إلىٰ الله جل وعلا، سمعوا أحاديثه، شرَّفهم الله برؤيته والتلقي عنه، وهذا المعنىٰ الذي في الآية ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ هذا كلُّه تحقق للصحابة بلا واسطة، شرَّفهم الله هذا الشرف العظيم.

ثم من بعدهم يأتي أناسٌ لم يحظوا بهذا الذي حظي به الصحابة، لكنهم تبعوهم، وحال الصحابة مع من جاء بعدهم يقولون: هذا الذي أدَّاه إلينا رسول الله ﷺ نؤدِّيه إليكم كما سمعناه وكما رأيناه، فتلقَّىٰ ذلك عن الصحابة تابعوهم بإحسان، ولا يزال هذا التلقِّي مستمرًّا، ولهذا مثل ما تقدم الاتِّباع بإحسان باقي (إلىٰ يوم القيامة)، كل من يشرِّفه الله تَعَالَىٰ بإلزام نفسه بمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وطريقتهم يكون من أهل هذا الشَّرف وهذا الفضل، فهو خيرٌ باقٍ الىٰ قيام الساعة.

وفي الآية قول آخر: إنّ المعنىٰ لم يلحقوا بهم في الفضل والمرتبة؛ بل هم دونهم، فيكون عدم اللحاق في الرتبة، والقولان كالمتلازمين، فإنّ من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في الزَّمان، فهؤلاء الصِّنفان هم السُّعداء.

هنا في الآية نفيٌ، قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا﴾ هنا نفيٌ ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ هل المراد لم يلحقوا بهم أي في الزَّمان، بمعنىٰ أنّ زمانهم متأخر عن زمان الصحابة؟ أو لم يلحقوا بهم في الفضل، بمعنىٰ أنّ فضلهم دون فضل الصحابة؟ يقول: الآية تحتمل هذا وتحتمل هذا في المعنىٰ، قال: (والقولان كالمتلازمين، فإنّ من بعدهم لا يلحقون بهم لا في الفضل ولا في) الزمن، من جاء بعد الصحابة زمانُه متراخي عن زمانهم، وفضله دون فضلهم، يكفي دلالة علىٰ ذلك قول النبي ﷺ: «**لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه**» [متفق عليه، واللفظ لصحيح أبي داود].

وأمّا من لم يقبل هُدىٰ الله الذي بعث به رسوله ﷺ، ولم يرفع به رأسا، فهو من الصنف الثالث وهم ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾.

نعم، هذا الصِّنف الثالث ذكر في هذا السياق من سورة الجمعة ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ يعني عرفوا التوراة ولم يعملوا بها، عرفوا الحق ولم يعملوا به، أعرضوا عنه، فهذا (من لم يقبل هدىٰ الله الذي بُعث به رسول الله ﷺ، ولم يرفع به رأسًا)، ولهذا كل من كان علىٰ هذا الوصف ففيه شبه باليهود، فيما نعَتهم الله ﷻ به في هذه الآية.

وقد ذكر النبي ﷺ أقسام الخلائق بالنِّسبة إلىٰ دعوته وما بعثه الله به من الهدىٰ، في قوله ﷺ: «**مثَلُ ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم: كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فسقىٰ الناس وزرعوا، وأصاب طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مَثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به**»، فشبه ﷺ العلم الذي جاء به بالغيث، لأنّ كُلًّا منهما سبب الحياة، فالغيث سبب حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب، وشبَّه القلوب القابلة للعلم بالأرض القابلة للغيث، كما شبَّه سبحانه القلوب بالأودية في قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧].

وكما أنَّ الأراضين ثلاثة بالنسبة إلىٰ قبول الغيث:

إحداها: أرض زكية قابلة للشُّرب والنبات، فإذا أصابها الغيث ارتوت منه، ثم ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ

﴿٥﴾ [الحج]، فهذا مثل القلب الزكي الذكي، فهو يقبل العلم بذكائه، ويُثمر فيه وجوه الحِكَمِ ودين الحق بزكائه، فهو قابلٌ للعلم مثمرٌ لموجبه وفقهه وأسرار معادنه.

والثانية: أرض صلبة قابلة لثبوت الماء فيها وحفظه، فهذه ينتفع الناس بورودها والسقي منها والازدراع، وهذا مَثَل القلب الحافظ للعلم الذي يحفظه كما سمعه، ولا تصرُّف له فيه ولا استنباط، بل له الحفظ المجرَّد، فهو يؤدي كما سمع، وهو من القسم الذين قال فيهم النبي ﷺ: «**فرُبّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه، ورُبّ حامل فقه غير فقيه**».

فالأول: مِثْلُ الغني التاجر الخبير بوجوه المكاسب والتجارات، فهو يكسب بماله ما شاء.

والثاني: مثل الغني الذي لا خبرة له بوجوه الربح والكسب، ولكنه حافظ لماله، لا يحسن التصرف والتقلب فيه.

يظهر أنّ صحة قراءتها: (فالأول مِثلُ الغني)، ليس مَثَل، الأول مِثْلُ الغني التاجر.

لأنّ الحديث ليس مَثَلا لهذا، وإنما هو مِثل، يعني ذكره للتوضيح بعد أن وضّح ذكر هذا يعني مثلا للتوضيح.

والأرض الثالثة: أرض قاع، وهو المستوي الذي لا يقبل النبات ولا يمسك ماء، فلو أصابها من المطر ما أصابها لم تنتفع بشيء منه، فهذا مَثَل القلب الذي لا يقبل العلم ولا الفقه والدراية فيه، وإنما هو بمنزلة الأرض البوار التي لا تنبت ولا تحفظ الماء، وهو مِثْلُ الفقير الذي لا مال له ولا يحسن يمسك مالًا.

فالأول: عالمٌ معلمٌ داعٍ إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فهذا من ورثة الرسل.

والثاني: حافظ مؤد لما سمعه، فهو يحمل إلىٰ غيره ما يتّجر به المحمول إليه ويستثمر.

والثالث: لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هدىٰ الله ولم يرفع به رأسًا.

فاستوعب هذا الحديث أقسام الخلق في الدعوة النبوية ومنازلهم، منها قسمان سعيدان وقسم شقي.

هذا الحديث العظيم الذي ساقه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ حديث أبي موسىٰ الأشعري، فيه بيان حال الناس مع الهدىٰ والخير الذي بُعث به الرسول عليه الصلاة والسلام، وضَرَبَ مثلًا لحالهم بالأرض، حال الناس جَعَلَ مَثَل حال الناس مثل الأرض، وجعل مثل ما جاء به عليه الصلاة والسلام بالغيث، وهذا التشبيه للوحي الذي أُنزل علىٰ محمد عليه الصلاة والسلام بالغيث، جاء حتىٰ في القرآن الكريم في مواطن، منها ما جاء في سورة الحديد، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد].

هذه آية ضربها الله، كما أنّ الأرض الميتة تحيىٰ إذا أنزل الله ﷻ عليها الغيث - الذي هو المطر -، فكذلك القلوب الميتة تحيىٰ إذا أكرمها الله ﷻ بغياث القلوب - الذي هو الوحي -، ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فالحاصل أنّ هذا الحديث - حديث أبي موسىٰ - ذكر فيه النبي ﷺ أنّ حال الناس مع الوحي كالأرض بعد نزول الغيث، وأنت إذا مشيت في الأرض بعد نزول الغيث تجد أنّ الأرض متفاوتة في استفادتها منه، وهذا فيه عبرة لك في هذا الباب العظيم، باب الوحي المُنزّل علىٰ النبي ﷺ، إذا مشيت في الأرض بعد نزول الأمطار، تنظر أثر المطر في الأرض تجد أنّ الأرض في حصول أثر الغيث فيها علىٰ ثلاثة أقسام:

أرض تنظر وإذا بها أنبتت و﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾ [الحج]، تملأ عين ناظرها بهجة وأُنسًا وسرورًا، قد ازدانت بالخضرة وكساها الجمال بعد أن كانت أرضًا لا نبات فيها، فتجد أنَّها حَيَتْ ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾﴾.

تنتقل إلىٰ أرضٍ أخرىٰ تجد أنَّها حفظت الماء، وحفظها للماء فيه نفع عظيم جدًّا، النَّاس يردون عليها بماشيتهم ودوابِّهم وقِربهم وآنيتهم، يغترفون منها ويأخذون منها الماء وينتفعون.

ثم تنتقل تجد قطعةً من الأرض أخرىٰ لا تُمسك الماء ولا تُنبت العشب، تأتيها بعد نزول الأمطار الغزيرة لا ترىٰ فيها الماء ولا ترىٰ فيها عشبًا نبت، فهذا المنظر الذي تراه بعد نزول الغيث هو في الحقيقة يصوّر لك حال الناس مع الوحي، يصوّر لك تمامًا حال الناس مع الوحي المنزّل علىٰ الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

فمنهم من يأخذ العلم والهُدىٰ الذي جاء به عليه الصلاة والسلام رواية ودراية، علمًا وفهمًا، وقسم آخر يحفظ الكثير من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لكنه لا يكون عنده ذاك الفقه والفهم وحسن الاستنباط، أحيانًا يكون الرجل حافظًا لحديث من سنوات طويلة، فيقرؤه علىٰ عالم فيقول له العالم: هذا الحديث فيه فوائد: الأولىٰ، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة... ربَّما يعد له عشرات الفوائد، وهو يحفظ الحديث من سنوات ولم يكن يعلم أنّ فيه كل هذه الفوائد، فهؤلاء كلّهم سعداء، كلُّهم مشتغلين بالخير، وكلٌّ بحسب ما آتاه الله ﷻ.

لكن المصيبة في القسم الثالث! الذي (لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدىٰ الله الذي) جاء به، وهذا مثله مثل الأرض التي «لا تمسك ماءً ولا تُنبت كلأ».

فهذا مَثَل عظيم ضربه النبيُّ ﷺ لحال الناس وشأنهم مع ما بعثه الله ﷻ به من الهُدىٰ والخير، وفي أثناء ذلك

ذكر مثلا شبيها بهذا المثل أو قريبًا منه جاء في القرآن، وهو حال الأودية، الأودية عندما ينزل الماء، هل الأودية علىٰ قدر واحد في استيعابها للماء وحفظها له أو متفاوتة؟ تجد أودية صغيرة وأودية كبيرة، فكذلك قلوب العباد مع الوحي المنزَّل هي كذلك شبيهةٌ بالأودية، إذا رأيت الأودية وحالها مع الماء عندما ينزِل الغيث فحال القلوب كذلك، أحيانًا تجد أودية مترامية الأطراف، وحَوَتْ ماءً غزيرًا جدًّا، وتجد أودية صغيرة جدًّا حَوَتْ ماءً قليلا، أيضًا قلوب العباد مع الوحي المُنزّل هي كذلك.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد] فهذا مَثَل مثلما ذكر الإمام ابن القيم: شُبِّهت فيه القلوب بالأودية.

فصلٌ

وأما النوع الثاني من الأتباع السعداء فهم أتباع المؤمنين من ذرِّيتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في دار الدنيا، وإنما هم مع آبائهم تبعٌ لهم، قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ [الطور].

هذا (نوع) آخر أو قسم (ثاني من الأتباع السعداء)، وهم الذرية الذين آباؤهم أهل صلاح وعبادة وديانة وطاعة لله ﷻ، فهؤلاء الذُّرِّية وإن لم يلحقوا آباءهم فيما يسَّره الله لهم من عبادة وطاعة، لكنّ الله يُكرم الآباء بأن يرفع ذرِّيتهم معهم في رتب الجنة التي هم فيها، تفضُّلًا منه ﷻ ومنًّا، فهذا نوعٌ غير الأول، هذا نوع في (الأتباع السعداء أتباع المؤمنين من ذرياتهم الذين لم يثبت لهم حكم التكليف في الدنيا)، الذي لم يثبت له حكم التكليف في الدنيا هو من فارق الدنيا صغيرًا قبل أن يبلغ سنَّ التكليف، فهذا لم تقع منه العبادة التي وقعت من والده، والتقرُّب الذي حصل من والده؛ لكن الله ﷻ يكرم الآباء بأن يرفع هؤلاء الذرية معهم، فتقرّ أعينهم بهم في منازلهم في الجنة.

أخبر سبحانه أنه ألحَقَ الذرية بآبائهم في الجنة كما أتبعهم إياهم في الإيمان، ولمّا كان الذرية لا عمل لهم يستحقون به تلك الدرجات قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، والضمير عائد إلىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وما نقصناهم شيئا من عملهم؛ بل رفعنا ذريتهم إلىٰ درجاتهم مع توفيتهم أجور أعمالهم، فليست منزلتهم منزلة من لم يكن له عمل، بل وفّيناهم أجورهم وألحقنا بهم ذرياتهم فوق ما يستحقونه من أعمالهم.

هذا مقام فضل ومنّة، تفضَّل الله ﷻ علىٰ الذرية كرامة لآبائهم، فيرفعهم ﷻ إلىٰ درجة آبائهم في الجنة

فيكونون معهم.

ثم لمّا كان هذا الإلحاق في الثواب والدرجات فضلًا من الله، فربما وقع في الوهم أنّ إلحاق الذرية أيضًا حاصلٌ بهم في حكم العدل.

يعني الذي تقدَّم في حكم الفضل، لكن هل هو حاصل في حكم العدل؟

فإذا اكتسبوا سيِّئات أوجبت عقوبة، كان كل عامل رهينًا بكسبه لا يتعلق بغيره منه شيء.

نعم، ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، لا يُلحِق ذريتهم بهم في هذه المقام، هذا مقام عدل، أما السابق مقام فضل، المقام الأول مقام فضل، فالله يكرم الذرية إكرامًا لآبائهم فيلحق بهم ذريتهم، لكن في هذا المقام الذي هو مقام العدل ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ﴾ [الطور:٢١]، ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

فالإلحاق المذكور إنما هو في الفضل والثواب لا في العدل والعقاب، وهذا ونحوه من أسرار القرآن وكنوزه التي يختص الله بفهمها من شاء، فقد تضمنت هذه الآيات أقسام الخلائق كلهم، سعدائهم وأشقيائهم، السعداء المتبوعين والأتباع، والأشقياء المتبوعين والأتباع، فعلىٰ العاقل الناصح لنفسه أن ينظر من أي الأقسام هو؟ ولا يغتر بالعادة ويخلد إلىٰ البطالة.

هذه نصيحة من هذا الإمام الناصح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لمّا ذكر هذه الأقسام ينبِّه أنّ الوقوف علىٰ هذه الأقسام لا لمجرد أن تطَّلع عليها، وتعرف أنّ هذه القسمة ذُكرت في القرآن وذكرت في السنة، وإنما تنظر في هذه الأقسام، ثم تنظر من أي الأقسام أنت!؟ تتأمَّل، ويُحاسب المرء نفسه في دار العمل قبل أن يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيحاسبه علىٰ عمله، يحرص علىٰ أن يكون من أهل الفوز والسعادة، لا أن يكون من أهل الشقاء والندامة.

فعلىٰ العاقل الناصح لنفسه أن ينظر من أي الأقسام هو، ولا يغتر بالعادة ويخلد إلىٰ البطالة.

كأن قائلا هنا قال: ماذا نصنع؟ ننظر، فأتمّ نصحه بهذا التوجيه السديد، فإن كانَ...

فإن كان من قسم سعيد انتقل منه إلىٰ ما فوقه، وبذل جهده، والله ولي التوفيق والنجاح. وإن كان من قسم شقي انتقل منه إلىٰ القسم السعيد في زمن الإمكان، قبل أن ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفرقان]!

هذه نصيحه بليغه جدًّا، يعني يحاسب المرء نفسه، فإن كان من أهل الخير والعبادة والقسم الذين هم أهل

السعادة فليحمد الله ﷻ، وليجاهد نفسه علىٰ الترقي في هذه الخير والزيادة في رتبه ومنازله، وإن كان والعياذ بالله من القسم الثاني الذين عُرِفَت أوصافه فيما سبق، فليجاهد نفسه علىٰ الخروج من هذه الطريق - طريق الشقاء - ويدخل في طريق السعادة، حتىٰ لا يأتي عليه يوم يقول: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ٢٨﴾، ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾ قبل أن تكون منه الندامة وعضّ أصابع الندم في يوم القيامة، يوم الوقوف بين يدي الله ﷻ.

فصلٌ

والمقصود بهذا أنّ مِن أعظم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ التعاون علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله ورسوله ﷺ، باليد واللسان والقلب، مساعدةً ونصيحةً وتعليمًا وإرشادًا ومودة.

هذا الفصل للربط بين البدء الذي بدأ به وهو الآية ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ وما فصّل فيه، الذي هو موضوع الهجرة، ولعلكم تذكرون أنّ سائلًا من زملائكم سأل هذا السؤال، يعني ما الصلة بين الآية التي بدأ بها ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ وبين موضوع الهجرة الذي أطال النفس فيه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ بيانًا وإيضاحًا؟ فلما أنهىٰ الكلام علىٰ الهجرة بهذا البيان وبهذا الإيضاح، ردّ الموضوع إلىٰ أوله وإلىٰ بدايته، ورد العَجُزَ إلىٰ الصدر الذي بدأ به، رد مؤخَّر الرسالة إلىٰ أولها ومبدئها، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فيقول: (أعظم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ التعاون علىٰ سفر الهجرة إلىٰ الله ورسوله)، وأن يكون هذا محور التعاون ومرتكزه.

ومن كان هكذا مع عباد الله كان الله بكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح علىٰ قلبه أبواب العلم، ويسّره لليسرىٰ، ومن كان بالضد فبالضد ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت].

يعني من كان كذلك علىٰ ما وصف ابن القيم، يعني ناصحًا للعباد، مساعدًا علىٰ تحقيق هذه المطالب العظيمة (تعليمًا وإرشادًا ومودة)، انتبه لكلمة (ومودة) لأنّ التعليم لابد فيه من مودّة، لابد فيه من لطف، لابد فيه من رحمة، حتىٰ يأنس المخاطب ويرتاح وتطمئن نفسه ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فمن كان كذلك (مع عباد الله كان الله بكل خير إليه أسرع، وأقبل الله إليه بقلوب عباده، وفتح علىٰ قلبه أبواب العلم، ويسّره لليسرىٰ)، وهذه كلها ثمرات الصدق والنصح والمجاهدة وبذل الوسع في تحقيق هذه المطالب العظيمة.

فإن قلت: فقد أشرتَ إلىٰ سفرٍ عظيمٍ وأمرٍ جسيمٍ، فما زادُ هذا السفر؟ وما طريقه؟ وما مركبه؟

هذه ثلاثة أسئلة يعني طرحت نفسها هنا كما يقال، بعد البيان المتقدم، وذكر أنّ الناس في سفر، وهذا السفر يحتاج إلىٰ زاد، ومعرفة الطريق، ويحتاج معرفة المركب، وهذا أمر نعرفه في الأسفار المعتادة، السفر المعتاد يحتاج فيه الإنسان إلىٰ هذه الثلاثة أشياء، يحتاج إلىٰ زاد السفر، ويحتاج إلىٰ معرفة الطريق، ويحتاج إلىٰ المركوب الذي يرتحل عليه وينتقل في سفره، فهذا السفر الذي يتحدث عنه الذي هو السفر إلىٰ الله والدار الآخرة، والسير إلىٰ الله والدار الآخرة، (ما زاده؟ وما طريقه؟ وما مركبه؟) هذه ثلاث أسئلة عظيمة جدًا، ثم يجيب عنها رَحِمَهُ اللَّهُ.

قلت: زاده العلم الموروث عن خاتم الأنبياء ﷺ، ولا زاد له سواه.

نعم، هذا هو زاده (ولا زاد له سواه)، زاد هذا السفر، (العلم الموروث عن) النبي (ﷺ)، لا يمكن أن يكون للمرء زاد للدار الآخرة إلا هذا العلم الذي أُخذ عن النبي الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة]، فالزاد هو هذا (العلم الموروث) المتلقّىٰ عن النبي عليه الصلاة والسلام، لا زاد سواه لهذه الرحلة وهذا السفر.

فمن لم يحصّل هذا الزاد فلا يخرج من بيته.

لا يتعنىٰ، إذا ما كان عنده هذا الزاد لا يتعنىٰ، لأنه مسافر سفرًا يفتقر إلىٰ زاد، وهو لا يحمل الزاد! الآن لو أنّ شخصًا - هذا مثال فقط للتوضيح - خرج من بيته ويريد أن يذهب إلىٰ أقصىٰ الدنيا، وين رايح يا فلان؟ قال: إلىٰ أقصىٰ الدنيا، ولا معاه زاد ولا شيء، يقال له: اجلس في بيتك لا تتعنّىٰ! لأنّ السفر يحتاج، وإلا تهلك في الطريق، تهلك في مفازةٍ أو صحراء أو شيء تلقاه في طريقك، يقال له: لا تتعنّىٰ، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته)، يعني لا يتعنىٰ، لأنّ هذا السفر يحتاج إلىٰ زاد، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلا يخرج من بيته)، هذه الكلمة ليست مقصودة لذاتها، وإنما المقصود بها ما هو؟ الحث، ليس هو يدعو إلىٰ أن يقعد في بيته، وإنما ينبّهه أنك لم تأخذ زاد هذا السفر فخذه خيرٌ لك، هذا مراده رَحِمَهُ اللَّهُ.

وليقعد مع الخالفين، فرفقاء التخلّف البطّالون أكثر من أن يُحصَوْا.

تقريع هذا، تقريع حتىٰ ينهض بالهمَّة، ألا تبقىٰ في هذا الموطن وهذا الدرك.

فله أسوةٌ بهم، ولن ينفعه هذا التأسّي يوم الحسرة شيئا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾ [الزخرف].

في الدنيا إذا أصيب الناس بمصيبة عامة يكون فيها سلوىٰ للمُصاب، يعني عندما ينظر أنه مصاب فيجد فلان وفلان وفلان معه مشتركين، فهذا يكون فيه سلوىٰ له، لكن في الدار الآخرة عندما يشتركون في العذاب، اشتراكهم في العذاب لا يُسلّيهم، لا تحصل لهم به هذه السلوىٰ في المصائب التي تحصل في الدنيا، المصائب العامة عندما يلتفت المصاب ويجد من حوله مثله يسلو نوعًا ما في المصاب الذي حصل له، بخلاف ما لو حصل له وحده، لكن في الدار الآخرة عند تعذيب هؤلاء بالنار، ويرون أنّ من حولهم يعذبون! هذا لا يسلِّيهم، هذا لا يحصل لهم به أي سلوىٰ لهم، هذا هو المراد.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فقطع الله سبحانه انتفاعهم بتأسّي بعضهم بعضا في العذاب.

نعم، (قطع سبحانه انتفاعهم بتأسي بعضهم بعضا)، هذا لا ينفعهم، لأنّ التسلي بالمصيبة بأنها مشتركة هذا في الدنيا، أما دخولهم النار لا ينفعهم أن يرىٰ بعضهم بعضًا قد اشتركوا في العذاب.

فإنّ مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مَسْلَاة، وتأسىٰ بعض المصابين ببعض، كما قالت الخنساء:

فلـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي ... علـــىٰ إخـــوانهم لقتلـــتُ نفســـي

ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن ... أســـلِّي الـــنفس عـــنهم بالتأسِّـــي

فهذا الرّوْح الحاصل من التأسي معدومٌ بين المشتركين في العذاب يوم القيامة.

الترويح للنفس والتسلية يعني الحاصل في الدنيا لا يحصل يوم القيامة للمشتركين في العذاب..

وأما طريقه: فهو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فلن يُنال بالمُنىٰ، ولا يُدرك بالهُوينا، وإنما كما قيل:

فخُض غمـرات المـوت واسـموا إلـىٰ العـلا ... لكـــي تـــدرك العـــز الرفيـــع الـــدعائم

فـــلا خيـــر في نفـــس تخـــاف مـــن الـــردىٰ ... ولا همـــــة تصـــــبو إلـــــىٰ لـــــوم لائـــــم

ولا سبيل إلىٰ ركوب هذا الظَّهر إلا بأمرين:

أحدهما: ألا يصبو في الحق إلىٰ لومة لائم، فإنّ اللَّوم يدرك الفارس فيصرعه عن فرسه ويجعله طريحًا في الأرض.

والثاني: أن تهُون عليه نفسه في الله، فيقدم حينئذ ولا يخاف الأهوال، فمتىٰ خافت النفس تأخرت وأحجمت وأخلدت إلىٰ الأرض، ولا يتم له هذان الأمران إلا بالصبر، فمن صبر قليلًا صارت تلك الأهوال ريحًا رخاءً في

حقِّه تحمله بنفسها إلىٰ مطلوبه، فبينما هو يخاف منها إذ صارت أعظم أعوانه وخدمه، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلا من دخل فيه.

هذا الطريق، الطريق (بذل الجهد واستفراغ الوسع) ومجاهدة النفس، كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩]، ومن سلك هذا الطريق يحذَر من المُخذّلين، مثلما قال ﵀: يعني لا يلتفت إلىٰ لوم لائم، كثير من الناس تستبين له السُّنّة، ويستبين له الحق، فيمتنع عنه لتخذيل من يُخذّله عنه، فهذا الطريق يحتاج إلىٰ بذل جهد، ولا يلتفت الإنسان إلىٰ من يخذِّله عن هذا الخير، وأن تهون عليه نفسه في الله (فيُقدم) وصدره منشرح ونفسه مطمئنة، وهو طامعٌ في عظيم فضل الله وكبير ثوابه ﷻ.

❁❁◊❁❁

وأما مركبه: فصدق اللَّجَأ إلىٰ الله، والانقطاع إليه بكليته، وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل عليه، والاستعانة به، والانطراح بين يديه، كالإناء المثلوم المكسور الفارغ الذي لا شيء فيه، يتطلّع إلىٰ قيّمه ووليه أن يجبره ويلم شعثه، ويمده من فضله ويستره، فهذا الذي يُرجىٰ له أن يتولىٰ الله هدايته، وأن يكشف له ما خفي علىٰ غيره من طريق هذه الهجرة ومنازلها.

هذا المركب هو صدق اللجأ إلىٰ الله، والفزع إلىٰ الله بالدعاء والإلحاح وحسن التوكل وتمام الثقة وتحقيق الافتقار إلىٰ الله ﷻ، ويكون دائمًا ملتجئا سائلًا ربَّه، ولهذا تجد في السنة الأدعية الكثيرة في الهداية والثبات، والإعاذة من الضلال، والتوفيق... ونحو ذلك، هذه كلُّها يحتاج العبد إلىٰ صدق اللَّجأ إلىٰ الله بالدعاء، حسن التوكل عليه، فهذا هو المركب في هذا السَّير، والمطية التي يكون عليها المرء، ويتحقَّق له المُضي قدمًا في هذا الطريق المبارك الموصل إلىٰ رِضوان الله ﷻ وجنات النعيم.

نفعنا الله أجمعين بما علمنا وزادنا علمًا وتوفيقا، وأصلح لنا شأننا كله، وهدانا إليه صراطًا مستقيما، اللّٰهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا ووالديهم وذرياتهم، وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللّٰهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللّٰهُمَّ متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

❁❁◊❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع

١٢/ ٤ /١٤٤٠

فصلٌ

ورأس مال الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولي علىٰ الفكر، ويشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر في قلبه وهي الغالبة عليه، بحيث يصير إليها مفزعُه وملجؤه، تمكّن حينئذٍ الإيمان من قلبه، وجلس علىٰ كرسيه، وصار له التصرُّف، وصار هو الآمر المطاع أمره، فحينئذٍ يستقيمُ له سيره، ويتّضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يباري الريح ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل:٨٨].

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. لمّا ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ ما يتعلّق بزاد المسافر في هذا الطريق - طريق السير إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ والدار الآخرة - ولما ذكر أيضًا الطريق والمَركب، عقد هذا الفصل المُختصر في بيان (رأس مال) المرء في هذا السير إلىٰ الله وفي هذا الطريق الذي هو سائرٌ فيه إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فما رأس مال المرء في سيره إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ؟ ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ذلك إنما هو (دوام التفكر وتدبر آيات القرآن)، التفكر في آيات القرآن والتدبر في معانيه وهداياته، وأنّ هذا التدبر لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كلما كان أمكن في قلب العبد مهتديًا بهدايات القرآن، كان ذلك أقوىٰ في سيره إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلىٰ العكس من ذلك كلما ضعُفت العناية بالقرآن ضعُف السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن عُدم فيه ذلك كان سيره إنما هو إلىٰ الوراء والتقهقر إلىٰ الخلف! قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾ [المؤمنون]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، أي: لو أنّهم تدبروا القول لما نكصوا علىٰ الأعقاب، ومفهوم المخالفة للآية أنّ تدبر القرآن والعناية بالتأمل في معانيه وهداياته يُقوي من سير المرء إلىٰ الأمام في سيره إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ والدار الآخرة.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنما هو دوام التفكر وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولي علىٰ الفكر)، بحيث يكون هذا التدبر مُستوليًا علىٰ فكر المرء، بحيث يكون المرء مشغولًا بهدايات القرآن ومعانيه العظيمة ودلالاته المباركة، ثم يكون مفزعًا وملجًا له في كل نائبة، كل ما نابه أمر فزع إلىٰ القرآن يهتدي بهداياته، وهذا الفزع إلىٰ القرآن أنواع كثيرة، يعني مثلًا: عندما يُوفق العبد إلىٰ الطاعة والعبادة، فينظر إلىٰ هدايات القرآن في هذا التوفيق، يجد أنّ

القرآن يهديه إلىٰ أنّ هذه نعمة الله عليه، وأنّ هذا فضل الله ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [النساء:٨٣]، فإذا نظر في هداية القرآن يعرف أنّ هذا التوفيق للطاعة هو منة الله، فيهديه القرآن إلىٰ الشكر والثناء علىٰ المُنعم وسؤاله المزيد من الفضل والتوفيق.

إذا وقع في معصية مثلًا، يجد أنّ هدايات القرآن له تهديه إلىٰ التوبة والإنابة ومسارعة الرجوع إلىٰ الله ﷻ، إذا حلت به مصيبة ونزلت به نازلة يجد أنّ القرآن يهديه إلىٰ الصبر والاحتساب ورجاء موعود الله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، إذا أكرمه الله بنعمة ومنّ عليه بمنة يهديه القرآن إلىٰ أنّ هذه النعمة هي محض فضل الله عليه، ويهديه إلىٰ شكر المُنعم، ويهديه إلىٰ استعمالها في طاعة المُنعم... وهكذا لا يزال المؤمن في أحواله وتقلباته وأموره يفزع إلىٰ القرآن ويلجأ إلىٰ القرآن ليهتدي بهداياته، في كل أمر وفي كل حال وفي كل شأن من شؤونه، فإذا كان المرء علىٰ هذا الحال مُتدبرًا للقرآن مهتديًا بهداياته يفزع إلىٰ القرآن في نوائبه وأموره وأحواله وتقلباته، مهتديًا بهداياته، لا شك أنه علىٰ هذه الحال يرتقي من خيرٍ إلىٰ خير، ومن كمالٍ إلىٰ كمال، ومن فضلٍ إلىٰ فضل.

يقول ابن القيم رحمه الله واصفًا حال من كان كذلك قال: (تمكّن حينئذٍ الإيمان من قلبه، وجلس) أي الإيمان (علىٰ كرسيه، وصار له التصرف)، ومعلومٌ أنّ تصرفات البدن فرعٌ عما يكون في القلب؛ بل إنّ البدن لا يتخلف إطلاقًا عن مرادات القلب، فهو تابعٌ له تبعية تامة، وهذا واضح في الحديث، قال عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» [متفق عليه]، فإذا تربّع الإيمانُ علىٰ كرسيّ القلب وتمكّن من قلب المُؤمن، وقُل بعبارةٍ أخرىٰ قل: إذا عُمِر القلب بالإيمان، ومُلِء إيمانًا، أيُّ شيءٍ سيكون البدن حينئذٍ في أعماله وأحواله وتصرُّفاته؟ قال: (صار له التصرف، وصار هو الآمر المُطاع أمره)، لماذا المُطاع أمره؟ لأنّ البدن لا يتخلّف إطلاقًا عن مُرادات القلب، إن استقام القلب استقام البدن، وإن انحرف القلب انحرف البدن؛ لأنّ البدن تابع للقلب تبعية تامة، فإذا عُمِر القلب بالإيمان يُصبح الآمر الناهي المُطاع أمره، (فحينئذٍ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يباري الريح)، أي في سرعة سيره إلىٰ الله ﷻ.

فصلٌ

فإن قلت: إنك قد أشرت إلىٰ مقامٍ عظيمٍ، فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبّر القرآن وتفهّمه والإشراف علىٰ عجائبه وكنوزه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البين غير ما ذكروه؟

قلت: سأضرب لك أمثالًا تحتذي عليها، وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد.

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧﴾ إلىٰ قوله: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات] فعهدي بك إذا قرأت هذه الآيات، وتطلّعت إلىٰ معناها وتدبرتها، فإنما تطلع منها علىٰ أنّ الملائكة أتوا إبراهيم في صورة أضيافٍ يأكلون، وبشّروه بغلام عليم، وأنّ امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أنّ الله قال ذلك، ولم يجاوز تدبرك غير ذلك.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (فصلٌ، فإن قلت: إنك قد أشرت إلىٰ مقامٍ عظيم)، الذي هو مقام التدبر للقرآن، ومن ثَم الاهتداء بهداياته العظيمة، (فافتح لي بابه، واكشف لي حجابه، وكيف تدبّر القرآن وتفهّمه والإشراف علىٰ عجائبه وكنوزه؟) ثم ضرب مثالا من آيات في سورة الذاريات، أخذ يذكر معانيها وكنوزها وما يُستنبط منها من دلالات وهدايات وآداب وعقائد... إلىٰ غير ذلك، يستنبط معاني يقرؤها المرء مُتأملًا هذه المعاني العظيمة المُستنبطة من هذه الآيات، ويشعر كأنه يقرأ هذه الآيات لأوَّل مرة! وكيف أنها مليئة بهذه الكنوز وهو كان يقرؤها المرّات ولا يعرف أنّ فيها هذه المعاني.

وقصد ابن القيم بهذا المثال تنشيط الهِمم والعزائم إلىٰ العناية بتدبُّر القرآن، والاهتداء بهداياته؛ لكن ينبغي أن يُضبَط هذا الأمر، وإلا يحصل انفلاتٌ عظيم وقولٌ علىٰ الله وفي كتابه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا علم تحت هذا المعنىٰ (التدبر للقرآن)، وكم من الأشياء التي خرجت علىٰ الناس خاصة في هذا الزمان - في زماننا - أشياء كثيرة هي من العجائب؛ بل من المنكرات! ويُسمِّيها أربابها وأصحابها تدبر للقرآن، واهتداء بهداياته، وفتقٌ لكنوزه بزعمهم - كنوز القرآن -! وهذا لو عُرضت أمثلته من الواقع يرىٰ الإنسان العَجب العُجاب، والغرائب الكثيرة، حتَّىٰ إنّ كثيرًا أصبح يأتي إلىٰ وقائع وحوادث في هذا الزمان ويتكلَّف باستخراج دلالة للقرآن أو إشارة للقرآن إلىٰ تلك الوقائع، بتكلُّفات عجيبة وغريبة للغاية، وهذا كما أشرتُ أمثلته كثيرة جدًّا في واقع النَّاس، فإذا لم يُضبط هذا الباب بقواعد تؤصِّل المرء وتُعينه علىٰ حُسن التدبُّر، حسن الفهم لكتاب الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا ينزلق ويقول في كتاب الله بغير علم.

قد قال صدّيق الأمة: أي أرضٍ تُقلني وأي سماءٍ تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم!

وهو سُئل عن مسألة يسيرة جدًّا عندنا، ولو طُرحت علىٰ كثيرٍ من الناس لَكلٌّ أجاب برأي ولا يتردد في ذلك، فلابدّ من ضبْط الأمر وإلا يحصل كما ذكرتُ انحرافات، والعلماء رحمهم الله كتبوا قواعد في هذا الباب، ومن أحسن ما يُنصح به في هذا المقام كتاب «القواعد الحِسان»، للإمام ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، «القواعد

الحِسان لتفسير آي القرآن» هذه قواعد مهمة جدًّا في باب التفسير، وأيضًا يُستفاد منها في هذا الأمر الذي هو التدبر.

والتدبُّر لا يكون بمعزل عن كلام أهل العلم وكلام المفسِّرين، وقد وُجد في زماننا هذا من يقول: إذا أردت أن تتدبَّر الآيات وتستخرج هداياتها، فلا تنظر لكتُب التفسير إطلاقًا، وركز علىٰ الآية وكرِّر معانيها واستظهر منها بنفسك! وهذا توريط للعوام والجُهال والمبتدئين، توريط لهم لأن يقولوا في كتاب الله ﷻ بلا علم، وإدخالهم في منزلق خطير جدًّا!

لابد من أمرين في هذا الباب: لابد من مطالعة قواعد أهل العلم في التفسير ومعرفة القرآن وهداياته، ولابد أيضًا من الرجوع إلىٰ كتب التفسير المعتمدة والقراءة فيها، حتىٰ يكون الفهم منضبطًا بضوابط أهل العلم ماضيًا علىٰ مسلكهم وطريقتهم.

وهذه الوصية كتبها ابن القيم إلىٰ رفقاء له في طلب العلم، وسيأتي تنصيصه لاحقًا علىٰ ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

ذكر هذا المثال - الآيات من سورة الذاريات - بدأ من قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات]، والآيات بعدها، ثم قال: (عهدي بك) أنك إذا قرأتها يعني لا يعدو فهمك وتدبرك لهذه الآيات إلا المعنىٰ الظاهر، الذي يؤخذ من ظاهر القراءة لهذه الآيات، دون غوص في المعاني واستخراج الكنوز والحِكم والأسرار التي تحتوي وتشتمل عليها هذه الآيات، ثم أطال النفَس رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في ذكر أمثلة أو معاني عظيمة مُستنبطة من هذه الآيات، مثالًا ضربه رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من الأسرار، وكم قد تضمنت من أنواع الثناء علىٰ إبراهيم، وكيف جمعت آداب الضيافة وحقوقها، وكيف يُراعىٰ الضيف، وما تضمَّنت من الرد علىٰ أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة، وكيف تضمَّنت عَلَمًا عظيمًا من أعلام النبوة، وكيف تضمنت جميع صفات الكمال التي مردّها إلىٰ العلم والحكمة، وكيف أشارت إلىٰ دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها، ثم أفصحت بوقوعه، وكيف تضمَّنت الإخبار عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذّبة، وتضمَّنت ذكر الإسلام والإيمان والفرق بينهما، وتضمَّنت بقاء آيات الرب الدالة علىٰ توحيده، وصِدق رسله، وعلىٰ اليوم الآخر، وتضمَّنت أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوفٌ من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأمَّا من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات، فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة.

هذه أسئلة ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ يستثير فيها الأذهان قبل الدخول في بيان المعاني، كم تضمنت من كذا؟ وكيف أتت بقواعد الضيافة وكرم الضيف؟ وماذا فيها من أعلام النبوة؟ وما يتعلق بصفات الله؟ وكذا، أشياء كثيرة يستثير

الأذهان مُنبّهًا أنّ هذه الآيات تشتمل علىٰ هذه المعاني، ثم دخل بعد ذلك إلىٰ التفاصيل قال: (فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة).

قال الله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات] افتتح الله سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد به حقيقته من الاستفهام، ولهذا قال بعض الناس: إنّ ﴿هَلۡ﴾ في مثل هذا الموضع بمعنىٰ (قد) التي تقتضي التحقيق، ولكن في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام سر لطيف ومعنىٰ بديع، فإنّ المتكلم إذا أراد أن يخبر مخاطبه بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدّر له الكلام بأداةٍ تنبّه سمعه وذهنه للخبر، فتارةً يصدّره بـ (ألَا) وتارةً يصدّره بـ (هل)، فيقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكّرًا به، وإما واعظًا له مخوّفًا، وإما منبّهًا علىٰ عظمة ما يخبَر به، وإما مقرّرًا له، فقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾ [النازعات]، ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ [ص:٢١]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية]، و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات] متضمِّنٌ لتعظيم هذه القَصص، والتنبيه علىٰ تدبرها، ومعرفة ما تضمَّنته.

يعني هذا الاستفهام له معنىٰ عظيم جدًّا، صُدرت به هذه القصة وصُدرت به أيضًا قصص عديدة في القرآن، وكما ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ هذه أسلوب مُستعمل عندما يريد المرء أن يذكر خبرًا عظيمًا مهمًّا يريد أن يشد انتباه السامع إليه يبدؤه بالاستفهام، فهذا الاستفهام له غرض، واستظهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ غرض الاستفهام هنا تعظيم هذه القصص، وبيان عِظم شأنها، رب العالمين جلّ في علاه يبدأ هذه القصص بهذا الاستفهام ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ فهي فيها تشويقٌ لها وتعظيمٌ لشأنها وبيانٌ لعِظم أهميتها.

وفيه أمرٌ آخر، وهو التنبيه علىٰ أن إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النّبوة؛ فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا من قِبَلِنا؟ فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمَّل عِظَمَ موقعه في جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ متضمنٌ لثنائه علىٰ خليله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإن في ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ قولين:

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم، ففيه مدحٌ له بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مُكرَمون عند الله، كقوله: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء].

وهو متضمنٌ أيضًا لتعظيم خليله ومدحه، إذ جعل ملائكته المُكرمين أضيافًا له. فعلىٰ كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

نعم، قوله: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ ذكر أنّ في معنىٰ هذه الآية قولين:

قيل: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي الذين أكرمهم إبراهيم.

وقيل: ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أي: عند الله، لهم كرامة ومكانة عند الله ﷻ.

قال: و(علىٰ كلا) المعنيين (والتقديرين فيها مدح لإبراهيم)، أمّا علىٰ الأول فظاهر، لأنّ هذا فيه ثناء عليه بالإكرام إكرام الضيف، وعلىٰ المعنىٰ الثاني أنهم مكرمون عند الله، ففيه أيضًا مدح لإبراهيم من جهة تعظيم إبراهيم الخليل، بأن جعل الله ملائكته المكرمين أضيافًا لخليله إبراهيم عليه السلام.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ متضمن لمدحٍ آخر لإبراهيم، حيث ردّ عليهم أحسن مما حيّوه به، فإنّ تحيتهم باسمٍ منصوبٍ متضمن لجملةٍ فعليّةٍ تقديره: سلَّمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسمٍ مرفوعٍ متضمِّن لجملةٍ اسميّةٍ، تقديره: سلامٌ ثابتٌ أو دائمٌ أو مستقرٌّ عليكم. ولا ريب أنّ الجملة الاسمية تقتضي الثُّبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدُّد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن.

والله ﷻ في شأن التحية قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء:٨٦]، وعلىٰ هذا التقرير الذي ذكر ابن القيم رحمه الله، فإنّ الذي فعله خليل الرحمن هو الأحسن ﴿أَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ فحياهم بتحيةٍ أحسن من التحية التي حيَّوه بها.

ثم قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾، وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمّم منه وجهان من المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ، والتقدير: أنتم منكرون، فتذمّم منهم.

هذه يعني لابد أن تستحضر أنّها صعبة جدًّا، يعني حسن مخاطبة وتذمم هذه صعبة جدًّا، يعني قد يصل الإنسان إلىٰ حسن المخاطبة، وقد يغلب عليه التذمم فلا يكون في الخطاب حسن مخاطبة، فهذا الذي ذكر في قوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ فيه حسن مخاطبة والتذمم منهم.

وفي هذا من حسن مخاطبة الضيف والتذمّم منه وجهان من المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ، والتقدير أنتم منكرون، فتذمّم منهم ولم يواجههم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش، بل قال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾، ولا ريب أنّ حذف المبتدأ في هذا من محاسن الخطاب، وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه، بل يقول: «ما بال أقوامٍ يقولون كذا، ويفعلون كذا».

والثاني: قوله: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾، فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم، كما قال تعالىٰ في موضع

آخر ﴿نَكِرَهُمْ﴾، ولا ريب أنّ قوله: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطف من أن يقول: أنكرتكم.

يعني علىٰ التقديرين، لم يقل علىٰ التقدير الأول: أنتم قومٌ منكرون، وعلىٰ التقدير الثاني لم يقل: أنكرتكم، فقوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ ألطف من هذا وهذا.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ متضمنٌ وجوهًا من المدح، وآداب الضيافة، وإكرام الضيف، منها قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ والروغان: الذهاب في سرعة واختفاءٍ، وهو يتضمن المبادرة إلىٰ إكرام الضيف، والاختفاء ترك تخجيله وألا يعرّضه للحياء، وهذا بخلاف من يتثاقل، يتبارد علىٰ ضيفه، ثم يبرز بمرأًىٰ منه، ويحلّ صرّة النفقة، ويزن ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأىٰ منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظ ﴿رَاغَ﴾ تنفي هذين الأمرين.

نعم، تنفي هذين الأمرين: التثاقل والتبارد في الذهاب لإكرام الضيف، وتنفي أيضًا المعنىٰ الثاني: أن (يبرز بمرأىٰ منه) ويُظهر إكرامه له يعني بمرأىٰ منه، يعد الدراهم أمامه مثلًا، ويُسمي مثلًا الأشياء التي يريدها أمامه... أو نحو ذلك، هذا فيه تخجيل للضيف وإحراج له، بخلاف إذا قام سريعًا وأتىٰ بالميسور وقربه إليه، فهذا فيه مراعاة للضيف في طريقة إكرامه، لأنّ من الإكرام ما يكون فيه تخجيل للضيف وإحراج له وإثقال عليه، وهذا أمرٌ ينبغي أن يُجتنب في إكرام الضيف، وهو الذي صنعه خليل الرحمن عليه السلام.

وفي قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ مدحٌ آخر، لما فيه من الإشعار بأنّ كرامة الضيف معدّةٌ حاصلةٌ عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه، ولا يذهب إلىٰ غير أهله، إذ نُزُلُ الضيفِ حاصل عندهم.

يقول: لا يحتاج أن يستقرض من جيرانه ولا يذهب إلىٰ غير أهله، لكن الشغل الآن كله علىٰ المطاعم! فالحاصل أنّ إكرام الضيف من البيت هذا له شأن، وله مذاقه، وله أيضًا طعمه الطيب عند الضيف، ولهذا بعض الناس إذا أراد أن يتحفّىٰ بضيف يقول: هذا شغل البيت، هذا عمل البيت، هذا أعددناه في البيت، هذا هيأه الأهل في البيت... مثل هذا له طعمه ومذاقه ووقعه في نفس الضيف، وأيضًا من ناحية أخرىٰ يجد الضيف أنه ليس هناك إثقالٌ حصل علىٰ من أكرمه، وتكلُّف بأن استفزع بالجيران أو... إلىٰ غير ذلك، وإنما أتىٰ له بشيءٍ موجود ضيافة موجودة عنده في بيته.

وقوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه.

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه، ليتخيّروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزولٍ، وهذا من نفائس الأموال، ولد البقرة السمين، فإنهم يعجبون به، فمن كرمه هان عليه ذبحه وإحضاره.

في سورةٍ أخرىٰ وصفه بأنه ﴿حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي مشوي، ويعني هذا أيضًا ذُكر أنه أطيب ما يكون في تقديم اللحم وطهيه وإعداده، وأنفع في فائدته عندما يكوم مشويًّا، قال ﴿عِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ [هود].

ﷺ

وقوله: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ متضمنٌ لمدحٍ وأدبٍ آخر، وهو إحضار الطعام إلىٰ بين أيدي الضيف، بخلاف من يُهيّئ الطعام في موضع، ثم يقيم ضيفه، فيورده عليه.

والآن كثير من البيوت قائمة علىٰ هذا الأمر، يعني يُهيئون مجلسين مجلس للاستقبال ومجلس للطعام، ثم يطلب من الضيف أن ينتقل من مجلس الاستقبال إلىٰ مجلس الطعام، والذي كان من إبراهيم أن قرّب له الطعام عنده لم يجعله ينتقل من مكانٍ إلىٰ آخر ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ قرّبه إلىٰ أضيافه، وهذه الطريقة كما أنها أوقع في الكرم، أسلم من الكُلفة الحاصلة ببناء غرفة مخصصة من ابتداء إنشاء البيت للطعام، يُنقل إليها الضيف للطعام، فهذا فيه توفير من جهة غرفة كاملة يوفرها الإنسان علىٰ نفسه لا يتكلف بناءها لأنه لا يحتاج إليها، إلا أن يُنقل الضيف من مكان لمكان، فإذا قُرِّب إليه هذا أوقع في الكرم من أن يُنقل هو من مكانٍ إلىٰ آخر.

ﷺ

وقوله: ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ فيه مدحٌ وأدب آخر، فإنّه عرض عليهم الأكل بقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ وهذه صيغة عرضٍ مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك.

لا بعض الناس يجيب كلام أصعب من هذا! بعضهم يجيب صعب جدًّا، يعني حتىٰ أنّ اللقمة ما تدخل إلا بشق الأنفس من الألفاظ التي قد تقال.

﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ هذا لطف، لطف في الخطاب، لطف رقيق كلام لطيف، لكن لو يقول: كُل! أو يأتيه بعبارة أشد من هذا، يأكل ونفسه قد تعاف الشيء الذي يأكله.

ﷺ

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون منهم شر، فإنّ الضيف إذا أكل من طعام ربّ المنزل اطمأنّ إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات]، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل، لأن امرأته عجبت من ذلك ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] لا يولد لمثلي، فأنّىٰ لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سرّيته هاجر، وكان بكره وأول ولده،

وقد بيّنَ سبحانه في سورة هود في قوله تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود]، في هذه القصة نفسها.

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلىٰ النّدبة وصكّ الوجه عند هذا الإخبار. وقوله: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام علىٰ ما يتأدىٰ به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، فلم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت علىٰ ذكر السبب الدال علىٰ عدم الولادة، لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم، وصرّحت بالتعجب.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ متضمنٌ لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته. والعلم والحكمة متضمنان لجميع الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية، والقدرة، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التّام. والحكمة تتضمن كمال الإرادة، من العدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووضع الأشياء مواضعها علىٰ أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب، كلّ هذا يُعلم من اسمه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ كما هي طريقة القرآن في الاستدلال علىٰ هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار علىٰ من يزعم أنه خلق الخلق عبثًا أو سدًىٰ أو باطلًا، فنفس حكمته تتضمن الشرع والقدَر، والثواب والعقاب، ولهذا كان أصحّ القولين أنّ المعاد يُعلم بالعقل، وأنّ السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل علىٰ إثباته.

ومن تأمّل طريقة القرآن وجدها دالة علىٰ ذلك، وأنّ الله سبحانه يضرب لهم الأمثال المعقولة التي تدلّ علىٰ إمكان المعاد تارةً، ووقوعه أخرىٰ، فيذكر أدلة القدرة الدالة علىٰ إمكان المقدور، وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه. ومن تأمل أدلّة المعاد في القرآن وجدها كذلك مغنيةً -بحمد الله ومنّته علىٰ عباده- عن غيرها، كافية شافية موصلةً إلىٰ المطلوب بسرعة، متضمّنة للجواب عن الشّبه العارضة لكثير من الناس. وإن ساعد التوفيق من الله كتَبْتُ في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيت في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء، والهدىٰ، وسرعة الإيصال، وحسن البيان، والتنبيه علىٰ مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلج له الصدر، ويشرق معه اليقين، بخلاف غيره من الأدلة، فإنها علىٰ العكس من ذلك، وليس هذا موضع التفصيل.

والمقصود أنّ مصدر الأشياء خلقًا وأمرًا عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائها لهما، لتعجّب النفوس من تولّد مولودٍ بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب

هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة علىٰ غير العادة المعروفة، فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته، وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلالٍ بموجب الحكمة.

ثمّ ذكر سبحانه قصة الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسوّمة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذّبين لهم، والدلالة علىٰ المعاد والثواب والعقاب، لوقوعه عِيانًا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة علىٰ صدق رسله وصحة ما أخبروا به عن ربهم.

ثمّ قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات]، ففرّق بين الإسلام والإيمان هنا لسرٍّ اقتضاه الكلام، فإنّ الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاةٍ من العذاب، ولا ريب أن هذا مختصٌّ بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾ لمّا كان الموجودون من المُخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم، لأنّ امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمةٌ في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين. وقد أخبر الله سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنّها كانت تدلّ قومها علىٰ أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشةٍ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومَن وَضَعَ دلالات القرآن وألفاظه موضعها تبين له من أسراره وحكمه ما يهزّ العقول، ويعلم معه تنزّله من حكيم حميد. وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور، وهو أنّ الإسلام أعمّ من الإيمان، فكيف استثنىٰ الأعمّ من الأخصّ، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أنّ المسلمين مستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منهم، بل هم المخرَجون الناجون.

يعني في الفرق بين الإيمان والإسلام علىٰ القاعدة المعروفة، إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فهنا اجتمع الإسلام والإيمان في هذا السياق المتعلق بقصة إهلاك الملائكة لقوم لوط عليه السلام، فالله جلّ وعلا قال: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣٥﴾ هذا ذكر للمُخرَجين الناجين، المُخرَجين من القرية المُهلكة الناجين من عذاب الله وعقوبته ﷻ، فذكرهم هنا بوصف الإيمان الذي يدل علىٰ صحة المُعتقد واستقامة القلب علىٰ طاعة الله ﷻ، ذكرهم بهذه الصفة صفة الإيمان، وقال: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٦﴾ الإسلام هو الظاهر، ظاهر العمل، فالملائكة لمّا جاءوا إلىٰ بيت لوط عليه السلام قالوا: ما وجدنا إلا بيت، لما جاءوا إلىٰ القرية قالوا: ما وجدنا إلا بيت من المسلمين، فوجود الملائكة، أو ما وجد الملائكة في القرية وجدوا بيتًا واحدًا من المسلمين، لأنّ هذا هو الظاهر، أنّ من في بيت لوط من أهل وذرية أهل إسلام هذا هو

الظاهر، لكنّ باطن امرأته هو الكفر، والله ﷻ في سورة التحريم ضربها مثلًا للكافرين، هي وامرأة نوح عليهما السلام، فباطنها الكفر، ولهذا في الإخراج ذكر الإيمان لأنها ليست معهم، لم تكن من المُخرجين، لكن فيمن وُجدوا في البيت ذكر وصف الإسلام لأنّ الإسلام حكمٌ على الظاهر، ففرّق بين الوصفين باختلاف الحالتين في الوصف، ففرّق بين الوصفين مرةً بوصف الإيمان عند ذكر الخروج، ووصف الإسلام عند ذكر من وجدوهم في القرية أو البيت الذي وُجد في القرية.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ [الذاريات]، فيه دليل على أنّ آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالّةٌ عليه وعلى صدق رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله، كما قال تعالى في موضعٍ آخر ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى]، فإنّ من لم يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قومٌ أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاء والسعادة، وأمّا من آمن بالآخرة وأشفق منها، فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التمثيل والتنبيه على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن، واستنباط أسراره.

يعني هنا خُتم هذا السياق المُتعلق بهذه القصة بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ ونبّه هنا ابن القيم رحمه الله تعالى أنّ الذي ينتفع بالمواعظ من يخشى عذاب الآخرة، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ فمن كان كذلك هو الذي ينتفع بمواعظ الإيمان وهدايات القرآن والزواجر ونحو ذلك، إنما ينتفع بها من كان يخاف ويخشى عذاب الآخرة، فإذا جاءت هذه المواعظ هزت قلبه وحركت أركانه وهيجته للطاعة وأبعدته عن المعصية والذنب.

والمقصود بهذا إنما هو التمثيل والتنبيه على تفاوت الأفهام في معرفة القرآن، واستنباط أسراره، وإثارة كنوزه، واعتبر بهذا غيره، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

يعني هذا مثال أراد أن يذكره حتى يُحرك في قلب طلاب العلم - وهو كتبها لطلاب علمٍ رافقوه في طلب العلم وساروا معه في طلب العلم - أن ينهضوا بأنفسهم إلى أن تحصل منهم مثل هذه العناية بالقرآن وتدبره واستخراج كنوزه ومعانيه، تحقيقًا لقول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد:٢٤]، وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]، وأؤكد في الختام بما بدأتُ به، أنّ هذا الباب باب التدبر لابد أن يُضبط بقواعد أهل العلم وأصولهم، وكتبوا في

ذلك كتابات عظيمة جدًّا، وابن القيم له قواعد في التفسير مبثوثة في مواطن من كتبه، وبخاصة كتاب «بدائع الفوائد»، وابن القيم له مقدمة في أصول التفسير نفيسة جدًّا، والشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ أشرت إلىٰ كتابه «القواعد الحِسان لتفسير آي القرآن»، فهذه القواعد تضبط المرء حتىٰ لا يجنح وتزل به القدم، وإلا كما ذكرت لكم في زماننا هذا حصلت غرائب وعجائب في ما يسمونه زعمًا تدبر للقرآن، واستخراج أسراره وكنوزه.

يعني أذكر من غرائب ما يُذكر في هذا الباب: رجل في فترة مضت قال: قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف:١٨٧]، قال: هذا سر كشفه هو بزعمه ﴿بَغْتَةً﴾ يقول: هذه في حساب الجُمّل ألف وأربعمائة وسبعة، واستنبط من أسرار هذه الآية أنّ الساعة تقوم ألف وأربعمائة وسبعة، قال هذا بحساب الجُمّل ﴿بَغْتَةً﴾ تساوي ألف وأربعمائة وسبعة، قال: والساعة تقوم عام ألف وأربعمائة وسبعة، نحن الآن في ألف وأربعمائة وأربعين مضىٰ علىٰ كلامه سنوات طويلة، فمثل هذا غرائب كثيرة جدًّا، تكلفات، وقول علىٰ الله بلا علم، وتكلف أيضًا في باب الأرقام الآن كثير جدًّا، يعني تكلفات يعني ما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها من سلطان، ولا تراها في هدايات السلف وتفاسيرهم لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لكن تكلفات بُلي الناس بها في هذا الزمان.

أقصد من ذلك أن يُحذر مثل هذا التكلف، وأن يربأ الإنسان بنفسه أن يقول علىٰ الله وفي كتابه بلا علم، ويحرص علىٰ الارتباط بكلام الأئمة وأهل العلم وقواعدهم في تفسير القرآن، يقرؤها ويتأملها، حتىٰ يكون الأمر منضبطًا، لا أن يجنح بنفسه إلىٰ أن يقول في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا علم، زعمًا منه أنّ هذا من التدبر للقرآن، ناهيك عما يحصل عند بعضٍ منه حتىٰ العقائد الخاطئة الفاسدة التي يزعمون بهتانًا وظلمًا أنها من هدايات القرآن، أو من المعاني المُستنبطة من هدايات القرآن.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، اللَّهُمَّ آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللَّهُمَّ إنا نسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفة والغنىٰ، اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تُهون به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللَّهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

١٣ / ٠٤ / ١٤٤٠

فصلٌ

والمقصود أنّ القلب لمّا تحوّل لهذا السفر، طلبَ رفيقًا يأنس به في السفر، فلم يجد إلا معارضًا مناقضًا، أو لائمًا بالتأنيب مصرّحًا ومُعرّضًا، أو فارغًا عن هذه الحركة مُعرِضًا، وليت الكلّ كانوا هكذا، فلقد أحسن إليك من خلّاك وطريقك ولم يطرح شرّه عليك، كما قال القائل:

إنّــا لفــي زمــنٍ تَــركُ القبــيح بــه ... مِــن أكثــرِ النــاسِ إحســانٌ وإجمــال

وإذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة علىٰ هذا السفر بالإعراض، وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسىٰ أن يقع نادرًا فيكون غنيمةً باردةً لا قيمة لها، وينبغي ألا يتوقف العبد في سيره علىٰ هذه الغنيمة، بل يسير ولو وحيدًا غريبًا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليلٌ علىٰ صدق المحبة.

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فلا يزال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة القيمة والوصية النافعة، يتحدث عن السير إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ، مهاجرًا إلىٰ ربه، مهاجرًا العبد إلىٰ ربه جل وعلا بإخلاص الدين له وإفراده بالعبادة، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع لهديه القويم، وسلوك صراطه المستقيم، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وفي هذا الفصل يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حاجة السائر في هذا الطريق إلىٰ الرفيق المعين، وهذه مسألة سبق أن أشار إليها، فإنّ الرفيق المعينَ لصاحبه فيه خيرٌ للصاحب عظيم، فإنّ الأخ بأخيه، إذا كان أخَ صدقٍ وأخَ إيمانٍ وأخ طاعة، قد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه موسىٰ وكليمه عليه السلام، وهو من أولي العزم من الرسل، قال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥]، فالعبد في هذا الطريق بحاجة إلىٰ الرفيق الصالح، وإن عزّ الرفيق وقلّ فلا ييأس، بل يجتهد في تحصيل الرفيق المعين.

ثم في الوقت نفسه ينتبه إلىٰ هذا الذي نبّه عليه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، أن يحذر من المُخذّلين، لأنّ المُخذّلين كُثُر، فإذا ما اتجهت همة العبد إلىٰ سلوك هذا الطريق، لم يسلم ممن يُخذّله عنه ويثنيه، ولهذا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (لمّا تحوّل لهذا السفر طلب رفيقًا يأنس به في السفر، فلم يجد إلا معارضًا مناقضًا، أو لائمًا بالتأنيب مصرّحًا ومعرّضًا، أو فارغًا عن هذه الحركة معرضًا)، فهذه أشياء يواجهها، أشبه ما تكون بالعقبات في طريقه وفي سيره،

فيجد المعارض المناقض، ويجد المؤنب تصريحًا أو تعريضًا، يجد هذا وهذا، فلا ينبغي له أن يلتفت لشيء من ذلك، بل عليه أن يحرص علىٰ لزوم طريق الاستقامة وإن قلّ الأعوان، وإن كثر المُخذّلون، عليه أن يحافظ علىٰ هذا الطريق، وأن يلزمه، وليتنبّه إلىٰ هذا الذي نبّه عليه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه ثمة من يَثني المرء بالمعارضة والمناقضة، وثمة من يثنيه باللوم تصريحًا أو تعريضًا، وثمة من هو فارغ من ذلك، فارغ عن هذه الحركة مُعرضًا، وهذا أيضًا يؤثر، هذا يؤثر عندما يكثر حول الإنسان من هم علىٰ هذه الصفة قد يؤثرون فيه، خاصةً إذا التفت إليهم.

قال: (وليت الكل كانوا هكذا، فلقد أحسن إليك من خلاك وطريقك)، أي: لم يُعارض وينتقد، ولم يؤنب ويعاتب لا تعريضًا ولا تلميحًا، وإنما خلاك وطريقك، هذا أحسن إليك، لأنك صرت في عافية منه وسلامة، لم يطرح عليك شره، فهذه عافية، والعافية سلامة وغنيمة تُحمد.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إذا كان هذا المعروف من الناس، فالمطلوب في هذا الزمان المعاونة علىٰ هذا السفر بالإعراض، وترك اللائمة والاعتراض، إلا ما عسىٰ أن يقع نادرًا فيكون غنيمةً باردةً)، أي: ما يكون علىٰ سبيل التقويم والتسديد والإصلاح ونحو ذلك، (وينبغي ألا يتوقف العبد في سيره علىٰ هذه الغنيمة؛ بل يسير ولو وحيدًا غريبًا، فانفراد العبد في طريق طلبه دليلٌ علىٰ صدق المحبة).

ومن نظر في هذه الكلمات التي تضمنتها هذه الوريقة، علم أنها من أهمّ ما يحصل به التعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ، وسفر الهجرة إلىٰ الله ورسوله، وهذا الذي قصد مُسطّرها بكتابتها، وجعلها هديته المعجّلة السابقة إلىٰ أصحابه ورفقائه في طلب العلم.

يعني هنا أوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنّ قصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الرسالة - التي جعلها هدية لرفقائه وزملائه في طلب العلم - قصد إيضاح هذا الطريق، الذي هو السير إلىٰ الله هجرةً إليه بالعبادةِ إفرادًا وإخلاصًا، وإلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام بالاتباع اقتداءً وائتساءً، فهذا الذي قصده بهذه الرسالة، وصدّرها بقول الله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢]، منبهًا أنّ هذا أعظم ما ينبغي أن يكون التعاون عليه بين المُتآخين في الله.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد جعلها) هدية (المعجّلة السابقة إلىٰ أصحابه ورفقائه في طلب العلم)، وهذا فيه أن طلبة العلم ينبغي أن يكونوا بهذه الصفة، أن يتهادوا العلم، وقد كان الصحابة كذلك يلقىٰ الواحد منهم أخاه فيقول: ألا أهدي لك هدية؟ ثم يذكر له حديثًا سمعه عن الرسول عليه الصلاة والسلام، فيفرح بها غاية الفرح، فهذا التهادي هو من أثمن التهادي وأنفسه، تُهدي لأخيك مسألة علمية، حديثًا عن رسول الله ﷺ، أدبًا رفيعًا، قولًا لعالم من أهل التحقيق... إلىٰ غير ذلك، هذا من أحسن ما يكون التهادي به، أيضًا تهادي كتب أهل العلم، هذا

كله من الأمور التي ينبغي أن تكون بين طلاب العلم، تأسيًا بالصحابة ومن اتبعهم بإحسان، فهو جعلها هدية لرفقائه في طلب العلم.

وأشهد الله -وكفىٰ بالله شهيدًا- لو تُوافي من أحدٍ منهم لقابلها بالقبول، ولبادر إلىٰ تفهّمها وتدبّرها، وعدّها من أفضل ما أهدىٰ صاحبٌ إلىٰ صاحبه، فإنّ غير هذا من ماجَرَيانات الرّكب الخبريّة - وإن تطلعت النفوس إليها - ففائدتها قليلة، وهي في غاية الرّخص لكثرة جالبيها، وإنما الهدية النافعة كلمةٌ من الحكمة يهديها الرجل إلىٰ أخيه المسلم.

يعني يقول هذه الكلمات والنصيحة التي سطرها هنا، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (أنها لو توافي من أحدٍ منهم لقابلها بالقبول)، وهذا من أيضًا حسن ظنه برفقائه وزملائه في طلب العلم، (ولبادر إلىٰ تفهّمها وتدبّرها، وعدّها من أفضل ما أهدىٰ صاحبٌ إلىٰ صاحبه)، ولاريب أنّ تهادي مسائل العلم والنصائح المسددة والكلمات النافعة القويمة هذا من خير ما يكون فيه التهادي بين أهل العلم وطلابه، ومن جاءته هدية من هذا القبيل ينبغي أن يفرح بها، وأن يُظهر أيضًا لأخيه الفرح بها، أكثر من فرح من أُهدي له شيء من المال أو شيء من مُتع الدنيا، يفرح بالعلم، لأنّ ثمرة العلم النافع وخيره عائدٌ علىٰ العبد في دنياه وأُخراه، ومنفعته له عظيمة جدًّا، فينبغي أن يفرح بها وأن يُظهر لأخيه الفرح، وأن يشكره علىٰ إحسانه إليه.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنّ غير هذا)، يعني غير العلم، (من ماجريانات الرّكب الخبريّة)، ماجريانات الركب يعني: التحدث بين الركب في الأشياء التي تجري وتقع بين الناس، ويُعبّر عن هذا أيضًا بمَجريات الأمور، فمثل لما يلقىٰ الواحد صاحبه ويقول: جرىٰ كذا، وحصل كذا، وشاهدت كذا، وما سمعت بكذا!؟ وهل عرفت كذا؟ وأشياء كثيرة يعني يُتحدث فيها، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإنّ غير هذا من ماجريانات الرّكب الخبريّة -وإن تطلعت النفوس إليها - ففائدتها قليلة)، فائدتها قليلة، لما يلقاك شخص ويقول لك: تدري ماذا حصل اليوم!؟ ثم يُحدثك بخبرٍ النفس قد تتطلع لسماع الأخبار، لكن لو نظرت إلىٰ الفائدة والعائدة قليلة، لكن لو جاءك شخص وقدم لك فائدة عظيمة تُفيدك في دينك وفي عبادتك وفيما خلقك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأجله وأوجدك لتحقيقه، شتّان بين هذا وهذا! (فإنَّ غيْر هذا من ماجريانات الرَّكب الخبريَّة)، الإخبار عن كذا والحديث عن كذا وحصل كذا... إلىٰ غيره (وإن تطلعت النفوس إليها ففائدتها قليلة، وهي في غاية الرُّخص لكثرة جالبيها)، وأنت تعلم أنّ البضائع إذا كثر الجالب - ويعني كثر العرض وقل الطلب - ماذا يحدث للسلع؟ ترخص، إذا كان الجالب كثير، ولهذا كثرة الآن المجريات والحديث والكذا... كل ما جلس مجلس ربما القصة عشرات المرات يسمعها، والحديث أو الأحداث والأخبار عشرات المرات يسمعها، وهي قليلة النفع، العرض كثير

والفائدة قليلة، والنفع ضعيف جدًّا، ففرق بين هذا وهذا.

قال: (وإنَّما الهدية النافعة كلمةٌ من الحكمة يهديها الرجل إلىٰ أخيه المسلم)، وهذا والله تنبيه عظيم يعني من هذا النَّاصح العالم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، أن يحرص المرء في المجالس أن يبقىٰ له أثر في فائدةٍ يُهديها إلىٰ إخوانه، نصيحةٍ يقدِّمها لهم، ولا يكون المرء مباركًا أينما كان ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، لا يكون مباركًا أينما كان إلا إذا كان في كلِّ مكان كذلك، يقدِّم خيرًا، يقدم نفعًا، يقدِّم فائدة، لكن إذا كان في أكثر الأماكن التي يجلس فيها يضيِّع الأوقات بالمجريات وأشياء من هذا القبيل أين البركة؟ أين البركة والحالة هذه!؟

ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنّه يبلُغ بمرافقتهم إلىٰ مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقه.

الآن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ وقد حثّ علىٰ الرَّفيق وأهمية الرَّفيق، قال: (ومن أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)، يقصد بالأموات الذين هم في العالم أحياء: العلماء، الذين بقيت سِيرهم، وبقي علمهم، وبقي نصحهم، وبقيت كتبهم، وبقيت مواعظهم ونصائحهم، وبقيت تحقيقاتهم، باقية في الأمة، يقول: اصحب هؤلاء، كن رفيقًا لهم، اصحب الصحابة، وقبلهم الأنبياء، والتابعين، اقرأ أخبارهم، اقرأ سيرهم، اعرف ما كانوا عليه من سيرةٍ عطرة وخُلُقٍ فاضل وأدبٍ عظيم، كما قال القائل:

كـرِّر علـيّ حـديثهم يـا حـادي فحـديثهم يجلـو الفـؤاد الصـادي

هذه الرُّفقة غنيمة للإنسان، رافق، (عليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)؛ لأنّ سِيَرهم باقية، ذكرهم الصالح في العالمين باقي، مؤلفاتهم باقية، تحقيقاتهم باقية، نصائحهم ومواعظهم باقية، خُذ الآن مثالًا علىٰ هذا الإمام ابن القيم، مات من مئات [السنين] لكن ما يكاد يمر يوم علىٰ الناس - وخاصةً طلاب العلم - إلا ويقولون: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، ما يكاد يمر يوم في مجالس كثيرة جدًّا إلا ويقولون: قال ابن القيم، ويذكرون غيره الكثير من أهل العلم، لماذا؟ ويُذكَرون كثيرًا في أشرف البقاع، في المساجد في بيوت الله، وفي أماكن العلم، وفي حلق الذكر... هذا اللسان لسان الصدق الذي جعله الله لهم هو حياة ثانية، لأنّ العمر عمرٌ هو في حياة المرء التي يعيشها إلىٰ أن تفارق روحه جسده، وهذا يُكتب، وأيضًا عُمر بعد الوفاة وهو أيضًا يُكتب، فإنّ الكتابة التي تكون للعبد أو عليه كتابتان: كتابة في حياته إلىٰ أن يموت، وكتابة أيضًا بعد وفاته ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس:١٢]، كتابتان: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ أي: في حياتهم ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ آثار المرء قد تكون في حياته، وكثير منها بعد مماته.

انظر آثار العلماء علىٰ مرّ التاريخ بعد وفاتهم، هذا كله يكتب لهم «**من دعا إلىٰ هُدىٰ كان له من الأجر مثل**

أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء» [صحيح مسلم]، على مرّ التاريخ تكون الكتابة، ولهذا من الناس من مات من مئات السنين وهو في كل يوم تُكتب له حسنات، كل يوم تُكتب له أجور، ومن الناس من هو يمشي الآن على قدميه على وجه الأرض ولا تُكتب له أجور؛ بل يُكتب عليه أوزار! وهو حي يمشي على وجه الأرض.

فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء)، رافق أهل العلم، ارتبط بأئمة العلم، أئمة السلف، الصحابة ومن اتبعهم بإحسان... حول هذا المعنى يقول ابن مسعود - وكثيرًا ما ينقله ابن القيم ومن قبله شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية في مواطن من كتبهما - أنه قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ابن مسعود: من كان مُستنًا فليستنّ بمن قد مات، فإنّ الحيّ لا تُؤمَنُ عليه الفتنة.

قال: (من أراد هذا السفر فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنّه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات)، بالمناسبة يعني أذكر شابًّا توفي من سنوات رَحِمَهُ اللَّهُ، في شبابه كان على همة عالية أحسبه في العبادة وطلب العلم، كان يُحدثني أحيانًا عن أحد أئمة السلف المتقدمين كأنه يتحدث عن أحد أصدقائه، يتحدث عن محبته له ومرافقته له مثل ما يتحدث الواحد منا عن أحد أصحابه المقربين له، ويتكلم عنه ويروي أخباره وآثاره وسيره... قرأ له بكثرة، وأصبحت بينه وبينه رفقة ومحبة عظيمة، وكان يتطلع أن يجمعه الله به في الجنة، ورفقة كنت أتعجب من قوة الصحبة التي بينه وبين أحد السلف من التابعين - كان سمّاه لي لكنني لا أذكره الآن -، فالحاصل يعني مرافقة هؤلاء فيها أثر عظيم، أثر عظيم جدًّا على العبد في عبادته في سلوكه في أخلاقه، (وليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات)، هذا الذي هو بعيد عن العبادة وعن الطاعة وعن التقرب هذا ميت، إذا صحبه الإنسان مات معه وأثّر عليه، فـ(ليحذر من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات فإنهم يقطعون عليه طريقه.).

فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض من سلف: شتّان بين أقوامٍ موتى تحيا القلوب بذكرهم، وبين أقوامٍ أحياءٍ تموت القلوب بمخالطتهم.

لا شك شتّان بين هؤلاء وهؤلاء، (شتّان بين أقوام موتى تحيا القلوب بذكرهم يعني بذكرهم)، يعني بذكرهم: ذكر سيرهم ذكر أخبارهم ذكر مواعظهم ذكر نصائحهم وتوجيهاتهم... ولهذا كم من أناس استقاموا في أزمنة متأخرة بهدايات أقوام ماتوا في أزمنة سابقة، سمع موعظة ونصيحة لأحد الأئمة، أو قرأ له كتاب فغيّره، غيّره وأثّر فيه تأثير، وكنت في رمضان بدأت بكتابٍ لهذا الإمام - كتاب «الداء والدواء» - وحشت على أشياء كثيرة حول هذا الكتاب للاستفادة منه، حتى تكون معاونة على الخلاص من الذنوب التي أهلكت الكثير في

هذا الزمان، لتفتُّح الأبواب وتشعبها وكثرة الوسائل، فهذا الكتاب بحاجة الناس إليه، والحمد لله يعني نحمد الله ﷻ من هذا المكان انطلق خير كثير في هداياتٍ مستفادة من الإمام ابن القيم رحمة الله عليه في هذا الكتاب، ولم يتيسر إكماله ونبدأ بإكماله بإذن الله ﷻ مع بداية الفصل الدراسي القادم - يعني بعد أسبوعين تقريبًا - في هذا المكان بعد صلاة الفجر.

فما علىٰ العبد أضرّ من عشرائه وأبناء جنسه، فإنّ نظره قاصر، وهمّته واقفةٌ عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أيّةً سلكوا.

(أيّةً سلكوا) أي: أيّ شيء سلكوا! وفي بعض النسخ (أيًّا سلكوا)، كلهم معناه مستقيم.

واقفةٌ عند التشبه بهم ومباهاتهم والسلوك أيّةً سلكوا، حتىٰ لو دخلوا جحر ضبٍّ لأحبّ أن يدخل معهم.

يعني (ما أضر علىٰ) الإنسان (من عُشرائه وأبناء جنسه)، لأن الناس الإنسان يعني أَلِف بالتشبه بأبناء جنسه، فإن كان نظره إلىٰ عُشرائه وأقرانه ماذا يصنعون؟ ماذا كذا؟ ينشغل عن هذا الذي يتحدث عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، (فإنّ نظره قاصر وهمته واقفه عند التشبه بهم ومباهاتهم، والسلوك أيّةً سلكوا)، وهذا يعني واقع مُشاهد، هذا واقعٌ مُشاهد.

فمن ترقّت همّته من صحبتهم إلىٰ صحبة من أشباحهم مفقودةٌ، ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم مشهودةٌ.

أشباحهم يعني هؤلاء العلماء وأهل الفضل وأهل النُّبل (أشباحهم مفقودة)، لأنهم أموات ماتوا من سنوات مئات السنين بعضهم، (ومحاسنهم وآثارهم الجميلة في العالم مشهودة) باقية.

استحدث بذلك همةً أخرىٰ وعملًا آخر، وصار بين الناس غريبًا، وإن كان فيهم مشهورًا ونسيبًا، ولكنه غريب محبوبٌ يرىٰ ما الناس فيه، وهم لا يرون ما هو فيه.

(يرىٰ) بما آتاه الله من علم وبصيرة (ما الناس فيه، وهم لا يرون ما هو فيه) يعني: ما هو فيه من خير فتح الله ﷻ عليه به ووفقه له.

يقيم لهم المعاذير ما استطاع، وينصحهم بجهده وطاقته، سائرًا فيهم بعينين: عين ناظرة إلىٰ الأمر والنهي، بها يأمرهم وينهاهم، ويواليهم ويعاديهم، ويؤدي إليهم الحقوق، ويستوفيها عليهم، وعين ناظرة إلىٰ القضاء

والقدر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، ويلتمس لهم وجوه المعاذير فيما لا يخلّ بأمرٍ ولا يعود بنقض شرعٍ، قد وسعتهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته، واقفًا عند قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف].

نعم، (قد وسعتهم) نقف عندها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ عن هذا الذي أقبل علىٰ سِيَر السلف وأخذ يعيش معهم قراءةً وتأملًا وتدبرًا في أحوالهم وسيرهم وأخبارهم، ثم يجد أنه مع طول المصاحبة لهم قد تأثر بهم كثيرًا، وتشبه بهم، وانعكست عليه من تلك القراءة لسيرهم تأسِّيًا واقتداءً بهم، فإذا أكرمه اللهُ وبلغ لهذه المرحلة عليه أن ينظر إلىٰ من حوله من العشراء والأقران والرُّفقاء ونحو ذلك... و(يقيم لهم المعاذير ما استطاع، وينصحهم بجهده وطاقته)، لا ينظر إليهم بعين العُجْب بنفسه، وأنه وأنه... لا ينظر هذا النظر؛ لكن عليه أن ينظر بعينين - هذا كلام مهم جدًّا - ينظر بعينين: الأولىٰ عين الشرع، والثانية عين القدر، الأولىٰ عين الشرع، عين الشرع: (عين ناظرة للأمر والنهي بها يأمرهم وينهاهم)، إذا نظر إليهم بهذه العين عين الشرع يبقىٰ ناصحًا معلِّمًا موجهًا، لكن كما سيأتي بالرفق والموعظة الحسنة... (وعين ناظرة إلىٰ القدَر، بها يرحمهم ويدعو لهم ويستغفر لهم)، ينظر بعين القدر فيحمد الله أنّ الذي قدَّر له هو هذا الخير الذي ساقه له، وينظر إلىٰ أولئك وهذه الحال التي عليهم فينظر بعين القدر، فيرحمهم، يدعو لهم بالهداية، يدعو لهم بالتوفيق، يدعو لهم بالصلاح، يدعو لهم أن يفتح الله علىٰ قلوبهم، أن يُقبل بقلوبهم، لا يكون عونًا للشيطان عليهم.

من القصص الجميلة في هذا قصة ذكرها ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أول سورة غافر للخليفة الراشد عمر بن الخطاب، كان رجلًا من أهل الشام ينتاب مجلس عمر، ثم انقطع ما أصبح يأتي، فسأل عنه عمر فقال له قائل: إنه أصبح يتعاطىٰ الشراب، فأمر كاتبه عمر أن يكتب: من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلىٰ فلان ابن فلان، أحمدُ الله إليك الذي لا إله إلا هو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر]، ثم قال لمن حوله - هذا موطن الشاهد -: ادعوا الله أن يُقبِل بقلب أخيكم، ولا تكونوا عونًا للشيطان عليه.

بعض الناس قد يكون عونا للشيطان علىٰ أخيه، إذا سمع عنه في بعض المعاصي قال: أخزاه الله! أبعده الله! وربما جاء باللعن! وربما جاء بأشياء... فأصبح عون للشيطان علىٰ أخيه، قال: لا تكونوا عونا للشيطان علىٰ أخيكم، ادعوا الله أن يُقبِل بقلبه. فوصل خطاب عمر إلىٰ ذلك الرجل، فبكىٰ وأثّرت فيه موعظة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، هو وعظه بآية واحدة من أول سورة غافر، ففهم المعنىٰ وكانت باب هداية له.

فيَنظر إلىٰ العاصي من إخوانه بعين القدر، فيرحمه ويدعو له ويستغفر له، يدعو الله له أن يُقبِل الله بقلبه، ثم ينظر له بعين الشرع فيقدم له الأمر والنهي بلطف، نصحًا وتوجيهًا وهدايةً ودلالة، لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُقبل بقلبه.

قد وسعتهم بسطته ورحمته ولينه ومعذرته.

لابد من هذا، لابد أن يكون بهذه الصفة، يسع بسطته لطفه رحمته لينه رفقه تودده... لابد منها، وقد قال الله ﷻ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

واقفًا عند قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] متدبرًا لما تضمنته هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق، وأداء حقّ الله فيهم، والسلامة من شرهم، فلو أخذ الناس كلّهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم، فإنّ العفو ما عفا من أخلاقهم، وسمحت به طبائعهم، ووسعهم بذله من أموالهم وأخلاقهم، فهذا ما منهم إليه، وأما ما يكون منه إليهم فأمرهم بالمعروف، وهو ما تشهد العقول وتعرف حسنه، وهو ما أمر الله به، وأما ما يتّقي به أذىٰ جاهلهم فالإعراض عنهم، وترك الانتقام لنفسه والانتصار لها. فأيّ كمالٍ للعبد وراء هذا؟ وأي معاشرة وسياسة للعالم أحسن من هذه المعاشرة والسياسة؟ ولو فكّر الرّجل في كل شرٍّ يلحقه من العالم - أعني الشرّ الحقيقيّ الذي لا يوجب له الرّفعة والزّلفىٰ من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاث أو ببعضها، وإلا فمع القيام بها، فكل ما يحصل له من الناس فهو خيرٌ له وإن كان شرًّا في الظاهر، فإنّه متولّدٌ من القيام بالأمر بالمعروف، ولا يتولّد منه إلا خيرٌ وإن ورد في حالة شرٍّ وأذًىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [النور:١١]، وقال تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران:١٥٩].

نعم، لما ذكر أهمية الخلق واللين والرفق والرحمة ونحو ذلك، جاء بهذه الآية قال: واقفًا عند قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، ونبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا التنبيه العظيم أنّ هذه الآية جمعت الأخلاق، هذه الآية جمعت الأخلاق في باب التعامل مع العباد، فهي آية جامعة، حتىٰ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (لو أخذ الناس كلّهم بهذه الآية لكفتهم وشفتهم)، فهي كافية شافية وافية في باب الخُلق والتعامل مع العباد، وهي ترتكز علىٰ ثلاث خلال عظيمة، الإخلال بها هو سبب الهلاك وسبب الشر والجناية علىٰ النفس والمضرة بها، فهي ترتكز علىٰ أمور ثلاثة ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان معنىٰ العفو قال: (ما عفا من أخلاقهم، وسمحت به طباعهم، ووسعهم بذله)، هذا الآن الذي يتحدث عنه هل الناس فيه علىٰ درجة واحدة؟ هل يُنتظر أن يكونوا فيه علىٰ درجة واحدة؟ لا، الناس معادن وأجناس وأصناف في أخلاقهم، فهل أنت تنتظر في كل من تلقاه أن يكونوا قمة في الخلق والتعامل؟ لن تجد، ولن يحصل هذا، لا من أهل، ولا من ولد، ولا من جار، ولا من قريب، ولا من

زميل... يتفاوتون، إذًا ماذا عليك؟ قال: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ خذ ما (سمحت به طباعهم)، وكلٌّ وطبعه، هذا تأخذ منه شيئًا جميلًا تحمده عليه، وآخر تأخذ منه شيئًا تصبر عليه، هذا يحتاج إلىٰ حمد علىٰ معاملة قدمها، وآخر يحتاج إلىٰ صبر، وهذا كله من أخذ العفو، الذي هو ما تسمح به الطباع، هذا يلاقيك بجميل الطباع والأخلاق، وآخر يلاقيك بأمور أخرىٰ، وكلٌّ يحتاج إلىٰ أسلوب من أساليب الأخذ المشار إليه في الآية ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾.

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ كن دائمًا ناصحًا مقدِّمًا الخير باذلًا الخير، ديدنك دائمًا ومسلكك...

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ لا تُجابه وتقابل الجاهل بمثل جهله؛ بل أعرض عنه تسلم، إن وقفت وجهًا لوجه وكلامًا بكلام ونطقًا بنطق وردًّا برد... تعبت وتأذيت، وجاءتك أمور ما تحتملها من الشرور، لكن إن أعرضت سلمت، وهذا الذي أمرك الله به قال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾.

يقول: (لو فكر الرجل في كل شر يلحقه من العالم - أعني الشر الحقيقي الذي لا يوجب له الرفعة والزلفىٰ من الله - وجد سببه الإخلال بهذه الثلاثة أو ببعضها)، إذن هذه الثلاث أخلاق عظيمة جدًّا ومهمة للغاية، ينبغي أن تكون ركيزة للمسلم في تعاملاته كلِّها.

وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حقّ الله وحقّ الخلق، فإنهم إمّا أن يسيئوا في حقّ الله أو في حقّ رسوله، فإن أساءوا في حقّك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقّي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم، وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم، فإنّ ذلك أحرىٰ في استجلاب طاعتهم وبذلهم النصيحة، فإذا عزمت علىٰ أمرٍ فلا استشارة بعد ذلك، بل توكّل علىٰ الله، وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإنّ الله يحبّ المتوكلين.

نعم، يعني الآن الإساءة إذا وقعت، يقول: (إن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفو عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم واستجلب قلوبهم)، يعني انظر الآن الوصية: إن أساءوا في حقك أنت فقابل ذلك بالعفو، اعف عنهم لوجه الله، وتقرب إلىٰ الله بالعفو، وإن أساءوا في حق واحد من إخوانك لا تحرص علىٰ أن تُثير فتنة بين المُسيء والمُساء إليه، بعض الناس لا يُوفق يأتي إلىٰ المُساء إليه ويقول: ما سمعت فلان ما ترك شيء إلا وكذا! فيُوجِد يعني شيئًا بينهم، فابن القيم يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإن أساءوا في حقّي فاسألني أن أغفر لهم، وأستجلب قلوبهم)، يعني انظر الطريقة التي تتلطف فيها حتىٰ يحصل الخير ويتحقق الصلاح والنفع والفائدة، قال: (وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشورتهم، فإنّ ذلك أحرىٰ في استجلاب طاعتهم وبذل النصيحة)، هذه أيضًا لطيفة، يعني مَن تُعامِل إذا وَجَدَكَ تُشركه في الأمور، تستشيره، تُحدث استشارته لك طمأنينة عندك، ولما يقول لك: أحب أسمع رأيك، يعجبني رأيك، حتىٰ لو لم يأخذ به، لكنه يعني يجعل لك شيئًا من القيمة والاعتبار،

إذا قدم لك هو من بعد ذلك نصحًا وقع موقعه في النفس، وأصبح له الأثر والنفع والفائدة، الأمور الواضحة التي عزمت عليها استشرت وعزمت عليها (توكل علىٰ الله، امضِ لما عزمت عليه من أمرك، فإنّ الله يحب المتوكلين)، يعني لا يثنيك أحد عن ما عزمت عليه من خير.

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أدّب الله بها رسوله ﷺ، وقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

(هذا وأمثاله) يعني من الآيات التي أشار إليها، (من الأخلاق التي أدّب الله بها رسوله ﷺ وقال فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾)، ولهذا من الأبحاث اللطيفة - ولا أدري هل كُتب في هذا أو لم يُكتب - من الأبحاث اللطيفة أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام في القرآن، لأنك تجد في القرآن آيات كثيرة تصف خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، هذا من جهة، جهةٍ أخرىٰ يشير إليها ابن القيم هنا رَحِمَهُ اللَّهُ، وهي أنّ كلّ خُلقٍ دعا إليه الله في القرآن فهو ماذا؟ في الرسول عليه الصلاة والسلام تامًّا وافيًا، مثل ما قالت عائشة: «كان خُلقه القرآن»، فلا يوجد في القرآن خُلق من الأخلاق العظيمة الآداب الكاملة إلا والنبي ﷺ مُتحلّ به علىٰ أتم ما يكون، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب].

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كان خُلقه القرآن**» [صحيح الجامع]، وهذه لا تتمّ إلا بثلاثة أشياء: أحدها: أن يكون العود طيبًا، فأما إذا كانت الطبيعة جافيةً غليظةً يابسةً عسر عليها مزاولة ذلك علمًا وإرادةً وعملًا، بخلاف الطبيعة المنقادة اللّينة السّلسة القِياد، فإنها مستعدّةٌ إنما تريد الحرث والبذر.

من كانت طبيعته كما وصف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فلا ييأس أيضًا، لا ييأس؛ لأنّ بعض الناس سبحان الله في هذا الباب يُيئّس نفسه ويُقنّطها، وتجده يعني يمضي في بعض الأخلاق الرديئة وهو لايزال يقول لنفسه: هذا طبع لا ننفك عنه، حتىٰ إن بعضهم يقول: كل القبيلة هكذا طبعهمّ وهذا طبع لا ننفك عنه، فيُيئّس نفسه ويُقنّطها، فتبقىٰ متردية في هذا الخُلق الذميم، فلا ييأس، وليذكر في هذا المقام قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ**» [صحيح الجامع]، فلا ييأس يجاهد ويدعو، يجاهد نفسه ويدعو ربه: اللّٰهُمَّ «**اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سَيّئها لا يصرف عني سَيئها إلا أنت**» [صحيح مسلم].

الثاني: أن تكون النفس قويةً غالبةً قاهرةً لدواعي البطالة والغَيّ والهوىٰ، فإنّ هذه أعداء الكمال، فإن لم تَقْوَ

النفس علىٰ قهرها وإلا لم تَزَل مغلوبةً مقهورةً.

نعم، يحتاج إلىٰ يعني همة عالية، نفس قوية مثل ما يقول ابن القيم: يحتاج إلىٰ - في أحد كتبه - إلىٰ علم يهديه، وهمة عالية تُرقّيه. يعني يحتاج إلىٰ همة قوية تُرقّيه في دروب الكمال والفضل والخير، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ**» [السلسلة الصحيحة]، أحيانًا يكون الأمر رشد واضح أمام الإنسان لكن ما عنده عزيمة، ما عنده همة، يراه واضحًا لكن الهمة رديئة ضعيفة، فيحتاج في هذا المقام (أن تكون النفس قوية غالبة قاهرة لدواعي البطالة والغي والهوىٰ)، حتىٰ تغلب هذه الدواعي، قوة النفس وقوة الهمة تغلب هذه الدواعي، إن لم تكن قوية ماذا يحصل؟ هذه الدواعي هي التي تكون لها الغلبة عافانا الله أجمعين.

❀❀◊❀❀

الثالث: علمٌ شافٍ بحقائق الأشياء، وتنزيلها منازلها، يميز به بين الشّحم والورم، والزجاجة والجوهرة.

يعني مثل ما نقلت لكم عبارته في أحد كتب: علم يهديه. يحتاج الإنسان إلىٰ علم حتىٰ يكون في سيره علىٰ معالم واضحة وطريق بينة، لأنّ من لا علم نافع عنده يهتدي به تشتبه عليه الأمور، مثل ما قال: لا (يميز بين الشحم والورم، والزجاجة والجوهرة)، ما يميز بينهم، فالعلم هو الذي يميز به بين الهدىٰ والضلال، والحق والباطل، والسُّنة والبدعة... كل هذه الأشياء ما يُميَّز بينها إلا بالعلم، ولهذا في الدعاء المأثور الذي كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقوله كل صباح بعد صلاة الفجر بعد أن يُسلم: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا**» [صحيح ابن ماجه]، بدأ بالعلم النافع لأنّ العلم النافع هو الذي يُميز به المرء بين الرزق الطيب وغير الطيب، وبين العمل الصالح وغير الصالح، إذا لم يكن عنده علم نافع كيف يُميّز؟ إذا لم يكن عنده علم كيف يعرف الهُدىٰ من الضلال والحق من الباطل!؟ فهو يحتاج إلىٰ علم يهديه هذا (الثالث)، ويحتاج إلىٰ همة تُرّقيه وهذا (الثاني)، ويحتاج إلىٰ العود الطيب والطبيعة الطيبة، لكن كما قلت حتىٰ لو وجد من نفسه في ذلك - يعني يبوسة في الطبع ونحو ذلك - لا ييأس، بل بالمجاهدة والدعاء يتحقق الخير، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت].

❀❀◊❀❀

فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال الثلاثة، وساعده التوفيق، فهو من القسم الذين سبقت لهم من ربهم الحسنىٰ، وتمّت لهم العناية.

(إذا اجتمعت للعبد هذه الخصال الثلاثة) التي ذكرها آخرًا رَحِمَهُ اللَّهُ، (وساعده توفيق) الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن وفقه الله، (فهو من القسم الذين سبقت لهم من ربهم الحسنىٰ)، لأن المَردّ إلىٰ التوفيق توفيق الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا

ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١]، أي: فيما كتب وقدّر وقضىٰ ﷻ، ولهذا كان كثيرٌ من السلف يخاف من السوابق والخواتيم، السوابق مثل ما في هذه الآية، وأيضًا في الحديث: «**إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**» [متفق عليه]، ولهذا دائمًا العبد يرجو التوفيق من الله، ويطمع في التوفيق، ويسأل الله الهداية والثبات، ويستعيذ به ﷻ من زيغ القلوب ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾ [آل عمران]، **فاللجوء إلىٰ الله استعانةً وتوكلًا**، والمجاهدة للنفس بهذه الأعمال والخصال التي أشار إليها رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

وهؤلاء هم القسم الأوّل المذكورون في قول النبي ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم» الحديث، وقد تقدم.

الحديث تقدم عند المصنف، وأيضًا تقدم له رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ شرح وافٍ ونافع لهذا الحديث، بقي الفصل الأخير من هذه الرسالة العظيمة، موعدنا معه بإذن الله ﷻ يوم الأحد القادم بإذن الله.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المستوى الثالث/الكتاب الثالث

شرح

الرسالة التبوكية

زاد المهاجر إلى ربه/ ابن القيم

لفضيلة الشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريغ

الدرس (١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر

١٦ / ٠٤ / ١٤٤٠

فصلٌ

ثُم ذكر الشيخ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه أخبار الرَّكْبِ وأشياء، إلىٰ أن قال: هذا وأوّل الأمر وآخره إنما هو معاملة الله وحده، والانقطاع إليه بكلية القلب، ودوام الافتقار إليه، فلو وفّىٰ العبد هذا المقام حقه لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه وبِرِّهِ ولُطفِهِ ودِفاعه عنه، والإقبال بقلوب عباده إليه، وإسكان الرحمة والمحبة له في قلوبهم، ولكن نقول: ربنا غلبَ علينا لُؤمنا! وجهلنا! وظلمنا! وإساءتنا! مِنْ أذَلّ شيءٍ منه، فها نحن مقرون بالتفريط والتقصير، ومن ادّعىٰ منّا عندك وَجاهةً فليس إلا ذليل حقير، فإن تكلنا إلىٰ أنفسنا تكلنا إلىٰ ضيعة وعجز وذنب وخطيئة، فواحسرتاه وواأسفاه علىٰ رضاك ولو غضب كل أحد سواك، وعلىٰ إيثار طاعتك ومحبتك علىٰ ما سواهما، وعلىٰ صدق المعاملة معك:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ ... وليتك ترضىٰ والأنامُ غِضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

إذا صح منك الوُدّ فالكل هيّنٌ ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فهذا الفصل الأخير من هذه الرسالة العظيمة النافعة للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، والتي كتبها كما علمنا وصيةً لرفقائه وزملائه في الشام، الذين رافقوه في طلب العلم وتحصيله.

وهي رسالة اشتملت علىٰ نُصحٍ عظيم في باب عظيم، ألا وهو «السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ» وما يتطلبه هذا السير من زادٍ عظيم، يبلغ به العبد رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجنات النعيم.

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ زاد هذا المسافر أنْ يُهاجر إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ رسوله عليه الصلاة والسلام، هجرةً إلىٰ الله بالإخلاص والعبودية، وإلىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالانقياد والمتابعة، وبيّن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أنّ السير إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يستقيم إلا بهذا.

ثم إنّه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ أوصىٰ وصية عظيمة لهذا المسافر إلىٰ الله جل وعلا، أن يعتني بالقرآن الكريم تدبرًا لهداياته، وتفقهًا في معانيه ودلالاته، ومجاهدة للنَّفس علىٰ العمل بهذا الكتاب العظيم، الذي فيه عزّ المسلم

وفلاحه وسعادته في دنياه وأخراه، إن وفّقه الله ﷻ للعناية بهذا القرآن تدبرًا وعملًا.

ثم في هذا الفصل الأخير من هذه الرسالة، أو هذه الوصية، أشار الناسخ أنّ (الشيخ) رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ (ذكر أخبار الرَّكب، وأشياء).. وهذا يُفيد أنَّ الناسخ في هذا الموطن لعلَّه اختصر شيئًا من رسالة الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وأشار إليه إشارةً مُجملة، وهو حديث ابن القيم عن الرَّكب وأشياء - أي من هذا القبيل – الرَّكب: أي ركبُ هذا السَّفر، وهم الصالحون من عباد الله، المُستقيمون علىٰ طاعة الله، المجاهدون أنفسهم علىٰ نيل مرضاة الله ﷻ.

ثم ذكر خاتمة لهذه الوصية: أنّ (أول الأمر وآخِره)، أي: مردُّ الأمر في هذا الباب علىٰ (معاملة الله وحده، والانقطاع إليه) بالكلِّية، (ودوام الافتقار إليه)، فهذا الذي ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ هو الذي إليه مردّ هذه الوصية، حسن معاملة العبد مع الله ذُلًّا وافتقارًا إلىٰ الله ﷻ، وانكسارًا بين يديه جل وعلا، وذلًّا وخضوعًا لجنابه، بأن يكون مُخبتًا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٣﴾ [هود]، فهذا الذي يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ هو الإخبات إلىٰ الله ﷻ، ذلًّا وخضوعًا وانكسارًا بين يدي الله ﷻ، وافتقارًا إلىٰ الله جلَّ وعلا.

يقول: (فلو وفّىٰ العبد هذا المقام حقه لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه)، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦]، فمن وفّىٰ هذا المقام رأىٰ أثر ذلك معجَّلًا في الدنيا؛ لأنّ أهل هذا الوفاء والصِّدق مع الله ﷻ لهم ثوابٌ في الدُّنيا مُعجَّل، نعيمٌ في الدنيا معجل، ونعيمٌ في البرزخ، ونعيم أبديٌّ خالد يوم لقاء الله ﷻ، كما قال الله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾ [الانفطار:١٣]، قال المصنف - أعني ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: أي في دورهم الثلاثة، الدنيا والبرزخ - الذي هو القبر -، والدار الآخرة.

(فلو وفّىٰ العبد هذا المقام لرأىٰ العجب العجيب من فضل ربه وبره ولطفه ودفاعه عنه)، مثل ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج:٣٨]، وفي صلاتنا اليوم المغرب استمعنا إلىٰ آية فيها شاهد لهذا الأمر، ما الآية؟ نعم، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ [يونس:١٠٣]، فهذا الدفاع عن المؤمنين وتحقّق النجاة لهم هو من ثمرة صدقهم مع الله، وثمرة إيمانهم وعبوديتهم وذلّهم بين يدي الله ﷻ.

قال: (والإقبال بقلوب عباده إليه)، هذه كلها آثار يتحدث عنها، آثار معجَّلة في هذه الحياة الدنيا، فمِن هذه الأثار (الإقبال بقلوب عبادِه إليه)، أي: أنّ الله ﷻ يجعل له مودَّة في قلوب الخلق، هذه المودّة الله الذي يجعلها، وهو الذي يضعُها، مثل ما جاء في أواخر سورة مريم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم]. وفي الحديث المشهور: «**إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض**» [صحيح مسلم]، فهذا معنىٰ قول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا: (والإقبال بقلوب عباده إليه، وإسكان الرحمة والمحبة في قلوبهم)، يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له في القلوب رحمة، ويجعل له في القلوب محبة ومودة.

قال: (ولكننا نقول: ربنا غلب علينا لؤمنا، وجهلنا، وظلمنا، وإساءتنا!) انظر دقّة البيان عند هذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ. ما قال في الرسالة وهو يخاطب زملائه في طلب العلم، ما قال: ولكن غلب عليكم لؤمكم وجهلكم وظلمكم... إلـخ، وإنما قال: ولكن غلب علينا! وهذا ملحظ مهم جدًّا في باب التوجيه والخطابة والوعظ والتذكير، لا يجعل الواعظ نفسه مبرًا وسليمًا، وإنما ما يعظ الناس به يُشرك نفسه معهم فيه، فيقول: ولكن من تقصيرنا، ولكن من تفريطنا، ولكن من ظلمنا لأنفسنا... ونحو ذلك، فهذا من حسن البيان، وله أثر في قلوب من يعِظهم ويذكِّرهم، إذا كان في خطابته دائما يقول: وأنتم.. وأنتم.. ربَّما قال بعضهم: هذا ماذا يكون!؟ ماذا يكون؟ ملَك هذا ولا ماذا!!؟

وإذا زاد علىٰ ذلك، إذا زاد علىٰ هذا أنّ هذا الذي يقول: أنتم وأنتم! يعرفون من سلوكه أشياء وأشياء من التفريط لم يكن لموعظته أي وقع في نفوسهم! فتزل عن القلوب أن تتمكن منها أو تصل إليها.

لكن في مثل هذا الإمام ونظرائه من أهل العلم علىٰ قدر عظيم من الاستقامة والعبادة والصلاح، ثم لمّا يعظ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (ولكن نقول: ربنا غلب علينا لؤمنا وجهلنا وظلمنا وإساءتنا...) يعنىٰ أتىٰ (بهذه) العبارات، (فها نحن مقرون بالتفريط والتقصير، من ادّعىٰ منا عندك وجاهة فليس إلا ذليل حقير)، الذي يدّعي لنفسه أنه وجيه عند الله، وله منزله عظيمة عند الله، وله مكانة هذا ذليل حقير ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم]، فلا يزكي المرء نفسه؛ بل ينبغي عليه أن يجمع مع إحسانه في العبادة - إن وفقه الله للإحسان فيها - رؤية التقصير دائما في حق الله وفي جنبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مثل ما ذكر الله سبحان وتعالىٰ في سورة المؤمنون، لمّا ذكر أوصاف عباده الكمل، ذكر من أوصافهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون]، أي: يُقدّمون ما يقدمون من طاعات وعبادات وقربات.. وهم خائفون ألا يقبل منهم! وأن تُردّ عليهم أعمالهم!

وقد جاء في «المسند» بسند صحيح، أنّ أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، سألت النبي ﷺ عن هذه الآية، قالت: يا رسول الله؛ أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر!؟ (ويخاف أن يعذب) قال: «لا يا بنت أبي بكر، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي، وهو يخاف ألا يتقبل منه» [صحيح ابن ماجه].

فالحاصل أنّ المؤمن هذا شأنه، يُحسن وفي الوقت نفسه عنه إشفاق وخوف، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: إنّ المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن. الحاصل أنّ ابن القيم يذكر رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الخاتمة الأحوال التي عليها الناس، من تفريط وتقصير وأشياء من هذا القبيل، حتىٰ إذا لمس المرء هذا التقصير في نفسه يجتهد في النهوض بها إلىٰ الصلاح والاستقامة علىٰ الجادة التي يسرّه أن يلقىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها يوم القيامة.

وقد كان يغني من كثيرٍ من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض، فلو نقشها العبد في لوح قلبه يقرؤها علىٰ عدد الأنفاس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي:

من أصلح سريرته أصلح الله علانيته،

ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس،

ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه.

يقول: (وقد كان يُغني من كثير من هذا التطويل ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض)، يغني عن هذا التطويل، الآن قرأنا يعني كلام أحسنَ رَحِمَهُ اللَّهُ في تحريره، وأحسنَ في البيان وأجاد رَحِمَهُ اللَّهُ في النصح، لمّا انتهىٰ من هذا الكلام، أراد أن يُنبّه علىٰ أنّ العبارة الطويلة التي في الكتاب - في رسالته هذه التي حررها - يغني عنها ثلاث كلمات، وسبحان الله هذا الذي يعني يحرره ابن القيم هو من جمال البيان، يعني هو قدّم نصيحة عظيمة جدا، كل واحد منا بحاجة إليها.

حتىٰ أنني أظن في جميع من استمعوا إلىٰ هذا الكتاب في هذا المجلس، أظن في جميع من استمعوا هذا الكتاب أنّ كل واحد يقول: لن تكفينا هذه المرة سنرجع لهذا الكتاب مرة أخرىٰ بإذن الله، نقرؤه بتمعن وتمهل وتدقيق في كلام ابن القيم، ونكون أيضا في الوقت نفسه نقرأه قراءة هادئة بعيدا عن الكلام الطويل الذي يقوله الشارح، ربما أنه أيضا في تطويله في الشرح يقطع علينا كثير من الفائدة، فلعلنا بإذن الله نجلس مع هذا الكتاب جلسة أخرىٰ صافية، نتأمل في الكتاب ونستعين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ تحقيق هذه المضامين.

أقصد أنّ ابن القيم من حسن بيانه - بعد أن باح بهذا البيان، ويسّر الله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه الفوائد العظيمة - أراد أن ينبه إلىٰ أنّ عبارات السلف رحمهم الله - وهذا نص عليه في بعض كتبه - قليلة الألفاظ، لكنها كثيرة الفائدة، فيقولون الكلمات المعدودة لكنها تنطوي علىٰ خير عظيم، وفائدة كبيرة جدًّا، وهذا مما أكرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به السلف رحمهم الله، كلمات قليلة وجيزة جدًا لكنها حوَتْ الخير العظيم.

من ذلك هذا الأثر الذي أشار إليه، وأثنىٰ عليه، قال: (ثلاث كلمات كان يكتب بها بعض السلف إلىٰ بعض،

فلو نقشها العبد في لوح قلبه يقرؤها علىٰ عدد الأنفاس لكان بعض ما يستحقه)، يعنىٰ هذا الكلام، أو هذا البيان، فيقصد رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ هذا الأثر جدير بأن يُعتنىٰ به عناية كبيرة جدًّا، وقد روىٰ هذا الأثر ابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي عون رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ قال: كان السلف يوصي بعضهم بعضًا بثلاث كلمات، وفي رواية ثلاث أحرف، وإذا غاب بعضهم عن بعض كتب بعضهم لبعض بها - هذه الثلاث الكلمات.

الأولىٰ: (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته).

السريرة القلب، (أصلح سريرته) أي: أصلح قلبه، بأن يجتهد في صلاح قلبه، وصلاح القلب هو المرتكَز وعليه المُعوّل، قد مر معنا قول نبينا عليه الصلاة والسلام: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ**» [صحيح البخاري ومسلم].

فقوله - قول السلف في هذا الأثر -: (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)، هذا مطابق للحديث «**ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله**» فلابد من عناية دقيقة جدًّا بالقلب، بأن يكون فيه الإخلاص، فيه الصدق، فيه التوكل، فيه الإنابة، فيه الرجاء -رجاء الله-، فيه الخوف من الله... إلىٰ غير ذلك من أعمال القلوب العظيمة، يجتهد أن يصلح قلبه بها.

وهذه الأشياء - التي هي أعمال القلوب - إطلاقًا لا يراها الناس، ولا يطّلعون عليها، وإنما هي أعمال بين العبد وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا الناس يجلس بعضهم إلىٰ بعض، ويرىٰ بعضهم بعضًا - حتىٰ في عباداتهم وأعمالهم إلىٰ غير ذلك - لكن لا يطّلعون.

ولهذا من كلام السلف والصحابة: لنا الظاهر والله يتولىٰ السرائر. أي القلوب، فإذن من أهم ما يكون - وهذه وصية السلف بعضهم لبعض - أن يجتهد الإنسان في إصلاح قلبه، وعليه أيضا أن يكثر من الدعاء في أن يصلح الله قلبه، وفي الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهُمَّ آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها**» [صحيح مسلم].

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «**التقوىٰ ها هنا**» **وأشار إلىٰ صدره ثلاث مرات**. [صحيح مسلم]

فالذي عليه المعنىٰ وقيام الأمر صلاح القلب، ولهذا أول ما يكون في هذا الباب العمل علىٰ إصلاح السريرة، إصلاح القلب، بأن تكون سريرة نقية، أن يكون القلب سليم، أن يكون القلب مُخبتًا مخلصًا صادقًا منيبا متوكلًا راجيًا طامعًا... إلىٰ غير ذلك من أعمال القلوب، يعمل علىٰ صلاح قلبه، إذا حصل هذا الصلاح للقلب كل أمور العبد تستقيم، كل أمور العبد تستقيم باستقامة القلب، (من أصلح سريرته أصلح الله علانيته)، هذه الوصية الأولىٰ.

الثانية: (من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس).

وهذا أيضًا يحمل العبد دائمًا وأبدًا علىٰ مراعاة صلاح حاله بينه وبين الله، ويلتمس دائما في الأمور والتعاملات ما فيه رضا الله، لأنّ العبد يمر في حياته بمآزق، ربما تدفعه إلىٰ مجاملة الناس ومجاراتهم في أمر يعلم أنّ الله لا يرضىٰ عنه به، فإذن هنا في مثل هذه الحالة الذي حصل: أنّ همته ملتفتة لصلاح ما بينه وبين الناس، حتىٰ لو كان في أمر يعلم أن الله لا يرضىٰ عنه بذلك، هذا خلل يجب علىٰ المرء أن يجاهد نفسه علىٰ السلامة منه، وهو سيمرّ ولابد في الحياة في مواطن يُختبر فيها في هذا، مواطن هي اختبار، فعليه أن ينتبه، وأن يكون رائده في هذا الباب كما قال السلف (الصلاح الذي بينه وبين الله)، «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عن وأرضىٰ عنه الناس**» [قال في صحيح الترغيب – صحيح لغيره]، وهذا الذي في الحديث هو المعنىٰ المراد هنا في قول السلف: (ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس).

الوصية الثالثة: (ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه).

من عمل لآخرته، جعل الآخرة هي أكبر همِّه، ليس المراد بكلام السَّلف هنا تعطيل العمل للدُّنيا، وأن يكون الإنسان عالة علىٰ الآخرين؛ بل الإسلام جاء بالحض علىٰ العمل وترك البطالة، جاء بذلك، وأن يأكل المرء من كسب يده ولا يكون عالة علىٰ الآخرين؛ بل يجتهد. لكن لا تكون هذه الدنيا أكبر همّه ولا مبلغ علمه، يعمل لآخرته، همه الآخرة، وطِلبته وبُغيته الآخرة؛ لكن لا ينسىٰ نصيبه من الدينا، ولا يكون عالة علىٰ الناس.

(ومن عمل لآخرته كفاه الله مؤنة دنياه)، وليس في قولهم: (كفاه الله مؤنة دنياه) أنّ المقصود تعطيل العمل، وأنّ الإنسان يُكفىٰ ولا يعمل، ليس هذا هو المراد؛ بل السلف رحمهم الله جاء عنهم آثار كثيرة في الحث علىٰ العمل، وأفردها ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ في رسالة مطبوعة «الحث علىٰ التجارة والكسب والعمل» أو قريبًا من هذا العنوان، السلف جاء عنهم آثار عظيمة في هذا الباب، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكفّفون الناس**» [صحيح البخاري ومسلم].

فالحاصل أنّ المقصود هو ألّا تكون الدنيا هي همّ الإنسان، ومبلغ علمه، لا يفكر إلا في الدنيا، ولا يعمل إلا للدنيا، ولا... هذا غير صحيح، بل يكون همته الآخرة، واجتهاده في نيل ثواب الآخرة، ولعل ممَّا يوضّح هذا المعنىٰ الذي تحدّث عنه ما جاء في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام: اللَّهُمَّ «**لا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا**» [صحيح الترمذي]، أكبر همنا، هذا الخطأ إذا كانت الدنيا أكبر همّ الإنسان، لكن كونه يهتم للدنيا هذا مطلوب، كونه يهتم للدنيا يهتم لمعاشه طعامه شرابه مسكنه، يطلب الرزق له ولولده ولـ...

هذه الأمور مطلوبة، لكن لا تكن هي أكبر همّ المرء ولا مبلغ علمه.

وهذه الكلمات برهانها وجودها، ولِمِّيَّتُها إنِّيَّتُها، والتوفيق بيد الله، ولا إله غيره ولا رب سواه.

هذه الكلمات ليست مجرد يُقال ويُسمع ويُكتب ويُحفظ... لا ليس هذا هو.

يقول: (هذه الكلمات برهانها وجودها، ولمّيتها إنّيتها)، يعني أنها تكون واقعة آنِيًّا وحالًا في حياة الإنسان وعمله وسلوكه، ليس مجرد كلام يُسمع، وإذا انتهىٰ نقول: عبارة السلف هذه جميلة جدًّا ورائعة! ثم لما ننطلق للعمل نغفل عن... لا ليس هذا، يقول: ليس هذا. (هذه الكلمات برهانها وجودها)، (وجودها) يعني واقعًا في سلوك المسلم، وسلوك طالب العلم، (والتوفيق بيده الله لا إله غيره ولا رب سواه).

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: وليعذر الأصحاب في هذه.

ثم قال: يعني كأنّ الناس في الأخير - كأنه والله أعلم - كأنّه بدأ يختصر يعني بعض الرسالة.

ثم قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه: وليعذر الأصحاب في هذه الكلمات، فإنها والله نفثة مصدور، وتنفّس محرور.

نعم، مُحبّ، يعني مُحبّ لإخوانه، وحريص علىٰ نصحهم والأخذ بأيديهم للمقامات العالية والمنازل الرفيعة، رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له وجزاه خير الجزاء.

أقلّبُ طرْفي لا أرىٰ من أُحبّه ... وفي الحي ممن لا أحب كثيرُ

فهو نفس من قد أكل بعضه بعضًا، فهو المبتدأ والخبر، ومنه الغناء ومنه الطرب.

ما في الخيام أخو وجدٍ يطارحه ... حديث ليلىٰ ولا صبٌّ يجاريهِ

فأحبّ مُحِبُّكم مُطارحة من بعدت عنه دياره، وشطّ عنه مزاره، فهو كما قيل..

(وشطَّ عنه مزاره) يعني يقول: أن بعيد عنكم، لكن ما نسيتكم، ويعني أطارحكم هذه الوصايا وهذه المعاني الجميلة، وإن كان الديار متباعدة والزيارة والتلاقي يعني في هذا الوقت غير متيسر، لكنني يعني أطارحكم ما عندي بهذه الوصية التي كتبتها في هذه الأوراق، ولعله والله تعالىٰ أعلم من نُصحِ هذا الرجل وصدقه مع الله بقيَت موعظة للناس من بعده، لم تكن لمن كتبها لهم فقط الذين هم زملاؤه ورفقاؤه في الطلب، بل يسّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقاءها علىٰ مرّ الأزمان، قرأها من طلاب العلم وأهل العلم المرات الكثيرة عبر الأزمان، وفي زماننا هذا طُبِعت الطبعات الكثيرة، ونفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها خلقا كثيرًا، ولعلّ هذا والله أعلم مِنْ نُصحِ هذا الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له.

فهو كما قيل:

يـا ثاويـا بـين الجـوانح والحشـىٰ ... منّـي وإن بعُـدَت علـيّ ديـارهُ
عطـفٌ علـىٰ قلـبٍ يُحبّك هـائمٍ ... إن لـم تصـله تقطعـت أعشـاره
وارحـم كئيبًـا فيـك يقضـي نحبـه ... أسـفا عليـك ومـا انقضـت أوطـاره
لا يسـتفيق مـن الغـرام وكلمـا ... نَحَـوْكَ عنـه تهتّكـت أسـتاره

وكل ذي شجوٍ يصرف هذا وأمثاله إلىٰ شجوه.

نعم، يعنىٰ أنواع الشجو، يعنىٰ فيهم من شجوه مع رفقائه في العبادة والعلم وأن يرتقي وإياهم المرتقيات العالية، ومنهم من شجوه في خسائس الأشياء وسيئ الأمور.

وهذا مما يستروح إليه المكروب بعض الاسترواح، وهيهات هيهات إنّ القلب لن يَقرّ له قرارٌ حتىٰ يوضع في موضعه، ويستقر في مُستقره الذي لا مقر له سواه، كما قيل:

إذا ما وضعت القلب في غير موضع ... بغيـر إنـاء فهـو قلـب مُضـيّعُ

وتحت هذا البيت معنىٰ شريف جدًّا، قد شرحته في كراسة مفردة والله أعلم.

يقول: (هيهات هيهات إنّ القلب لن يقر له قرار حتىٰ يوضع في موضعه) أي الذي خلقه الله له، فالقلب خُلِقَ ليكون قلبا ذاكرًا لله، مُعظّمًا لله ﷻ، فلا يقرّ قرار القلب إلا أن يوضع في الموضع الذي خلِقَ له، ولهذا سعادة القلب وزوال القلق عنه والاضطراب لا يكون إلا بهذا، القلب خُلِقَ ليكون موحّدًا معظمًا ذاكرًا لله ﷻ، لا أن يكون غافلًا لاهيًا ساهيًا مستودعًا لوساوس الشياطين والأوهام والشهوات المحرمة... وإلىٰ غير ذلك، مما بها تلف القلب وفساده وضياعه.

ثم ذكر هذا البيت قال: (إذا ما وضعت القلب في غير موضعٍ بغير إناءٍ فهو قلبٌ مضيع). أشار رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ له رسالة أفردها في هذا البيت، أشار إلىٰ ذلك، وشيخ الإسلام ابن تيمية له في «مجموع الفتاوىٰ» كلام حول هذا البيت وبيان معناه، من حاصل قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ - أعني ابن تيمية - في كلامه علىٰ قول الناظم: (إذا ما وضعت القلب في غير موضع بغير إناء فهو قلبٌ مضيع):

إذا ما وضعت قلبك في غير ما خُلق له، فاشتغل بالباطل، ولم يكن معك إناء يوضع فيه الحق، فقلبك إذن مُضيّع، يعني القلب خُلِقَ للحق، فإذا لم يُشغل بالحق وإنما شغل بالباطل، وليس مع الإنسان إناء يضع فيه الحق، ويرىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أنّ الإناء هنا في البيت هو نفس القلب، هو القلب بعينه، فإذا كان القلب شُغِل بالباطل، وليس معك إناء، وقلبك ليس معك تحفظ به الحق، (صار قلبًا مضيعًا)، ضيعه صاحبه في

الأمور المُردية المُهلكة، ولا نجاة للمرء يوم القيامة إلَّا إذا جاء إلىٰ الله ﷻ بقلبٍ سليم.

هذا آخرُ ما ذكره الشيخ رضي الله عنه وأرضاه في هذا الباب، والحمد لله وحده، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آلة وصحبه وسلم.

يعني هذا ما ختم به ابن القيم رحمه الله تعالىٰ هذه الرسالة العظيمة - الرسالة التبوكية - وهي رسالة يعني كما عرفنا كتبها وصية لزملائه ورفقائه في طلب العلم، أحسنَ فيها وأجادَ ونصح نُصحًا عظيما، نسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء وأوفاه، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علما وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين.

الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ ذكر في هذه الرسالة من ضمن وصاياه العظيمة: (دوام التفكر وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولىٰ علىٰ الفكر ويشغل القلب). قال: (فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه، وهي الغالبة عليه، بحيث يصير إليها مفزعه وملجؤه تمكن الإيمان من قلبه).

ثم عقد فصلا مطولًا ذكر فيه آيات كما عرفنا من سورة الذاريات، وبيّن المعاني المستفادة من ذلك.

مُرادي أنّه في هذا الفصل صدّره بقوله: (رأس مال الأمر وعموده في ذلك دوام التفكر في القرآن وتدبر آياته).

ووقفت علىٰ كلام عظيم له جدًّا في كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ «مدارج السالكين»، في فصل حول هذه المعنىٰ (تدبر القرآن) فأحببت أن نستمع إليه خاتمةً وتتميمًا لوصيته في هذا الأمر الذي عليه مدار الأمر، وهو رأس الأمر كما ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

فصلٌ

وأما التأمل في القرآن فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه، وجمعُ الفكر علىٰ تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص]

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد]

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾ [الزخرف]

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: نزل القرآن ليُتدبّر ويُعملَ به، فاتخَذوا تلاوته عملًا!

يُذكر أن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ – وهو من علماء التابعين – رأىٰ بعض القراء في زمانه انشغل بالقراءة فقط، ولم يكن له عناية بالتدبر والعمل، فقال هذه الكلمة، هذا في أي زمان؟ زمن التابعين! فلو جاء في زماننا ماذا عساه أن يقول رَحِمَهُ اللَّهُ!؟

فليس شيءٌ أنفعَ العبد في معاشه ومعاده وأقربَ إلىٰ نجاته من تدبّر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع فيه الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تُطلِعُ العبدَ علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما. وتتل في يده مفاتيح...

(وتتُلّ في يده) أي تضع في يده.

وتتُلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثبِت قواعد الإيمان في قلبه، وتُشيد بنيانه وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصّره مواقع العِبَر، وتُشهِده عدل الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يُبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتُعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم،

ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه...

وبالجملة: تعرفه الرب المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذ قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرىٰ: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها.

فتشهده الآخرة حتىٰ كأنه فيها، وتُغيّبه عن الدنيا حتىٰ كأنه ليس فيها، وتُميّز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرّق به بين الهدىٰ والضلال، والغيّ والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإنّ معاني القرآن دائرة علىٰ التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلىٰ الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلىٰ الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جُعِلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حين يستقر في رحم أمه إلىٰ يوم يوافي ربه ويقدم عليه.

(وما يختص بالنوع الإنساني) يعني أعمال الملائكة التي تختص بالإنسان.

❀❀◊❀❀

وما يختص بالنوع الإنساني منهم من حين يستقر في رحم أمه إلىٰ يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلىٰ الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المُطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتمّ تفصيل وأبينه، وعلىٰ تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحِكَم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره...

هذه كلها خلاصات عظيمة جدًّا لما يجده قارئ القرآن والمتدبر لآياته ومعانيه وهداياته.

❀❀◊❀❀

فلا تزال معانيه تُنهِضُ العبد إلىٰ ربه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه علىٰ التضمّر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتَهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلىٰ سواء السبيل، وتصدُّهُ عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه علىٰ الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصّره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلّا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبّت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل،

وتسهّل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتُناديه كلما فترت عزماته وونىٰ في سيره: تقدَّمَ الرّكبُ وفاتَكَ الدّليل! فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصِم بالله واستعِن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

حسبك. هذا كما ذكرت فصلٌ عظيم جدًّا فيه خلاصة بديعة، يُنصح طالب العلم والمعتني بالقرآن أن يقرأها مرات عديدة، ثم يجعلها هدفًا له، يجعلها هدفا وغاية يطلب تفاصيلها في كتاب الله ﷻ، لأنّ ابن القيم لخّص معاني القرآن، أو كثيرا من معاني القرآن وأحكامه ومضامينه في هذه الخلاصة العظمية، فهي خلاصة عظيمة جدًّا، لو يقرؤها طالب العلم والمهتم بكتاب الله ﷻ ويجعلها سببًا لمعونته علىٰ تحصيل هذه الفوائد والحِكم في كتاب الله ﷻ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقًا، وأن يُصلح لنا شأننا كله، وألَّا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفه عين، اللّٰهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحولُ بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللّٰهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوراث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

أنبّه أنّ الدرس يتوقف، ونواصل بإذن الله الأحد الذي بعد القادم بداية الفصل القادم بعد الفجر بإذن الله تعالىٰ في كتاب «الداء والدواء» لابن القيم، إكمالًا لما بقي منه.

سبحانك اللّٰهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللّٰهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.

تمّ بحمد الله تعالىٰ وفضله وحده